

منتدى مكتبة الاسكندرية

البحر



# البحر السعيد

رئيسي



دار الآداب

البيركامو

# الموت السعيد

رواية

ترجمة: عناية طه مجياردين

منشورات دار الآداب - بيروت

## القِسم الأول

### الموت الطبيعي

## الفصل الأول

كانت الساعة العاشرة صباحاً ، وكان باتريس مرسو يسير بخطى منتظمة نحو دائرة زغرو . في هذه الساعة كانت الممرضة قد خرجت الى السوق ، وكانت الدارة مقفرة . كان ذلك في نيسان ، في صبيحة ربيعية جميلة متلألئة وباردة ، ذات زرقة صافية ومثلجة ، وشمس ساطعة باهرة ولكنها من غير حرارة . امام الدارة ، وبين الصنوبرات التي كانت تغطي الكتبان ، كانت اشعة صافية تسيل على الجذوع . كانت الطريق مقفرة ، وكانت تصعد قليلا . وكان مرسو يحمل حقيبة بيده ويتقدم في هالة هذا الصباح العالمي مخترقاً صوت خطاه الجفاف على الطريق البارد وصرير قبضة حقيبته المنتظم .

قبل الدارة بمسافة قصيرة ، كانت الطريق تنفتح على ساحة صغيرة مليئة بالمقاعد والحدائق . وكانت نباتات ابرة الراعي الباكورية الحمراء وسط الاصبار الرمادية ، وزرقة السماء وجدران السور المطلية بالكلس ، كان ذلك كله من الغضاضة والطفولة بحيث جعل مرسو يتوقف لحظة قبل ان يستأنف الطريق الذي كان ينحدر من الساحة نحو دائرة زغرو . توقف امام العتبة ولبس قفازيه ، وفتح الباب الذي كان العاجز قد تركه مفتوحاً واغلقه بالطبع . وتقدم في الممر حتى إذا بلغ الباب الثالث الى اليسار دق عليه ودخل . كان زغرو قابلاً هناك ، على مقعد ، وعلى جدعات ساقية غطاء ، امام المدفأة ، تماماً في المكان الذي كان مرسو يحتله ليومين مضياً . كان يقرأ ، وكان كتابه يستقر على غطاءه بينما كان يحرق بعينيه المستديرتين اللتين لم تكونا تنمان عن اية دهشة ، بمرسو الواقف الآن امام الباب المغلق . كانت ستائر النوافذ قد سحبت وكانت تستقر



على الارض وعلى الاثاث وعلى زاوية الاشياء برك من الشمس . وخلف النوافذ ، كان الصباح يضعلك على الارض المذهبة والباردة . وكان فرح كبير مثلج ، وصرخات عصافير ثاقبة ذات صوت غير واثق وفيض من نور لا هودة فيه ، تضفي كلها على الصبيحة وجهاً من البراءة والحقيقة . كان مرسو قد توقف وأحس بحرارة الغرفة الخائفة تأخذ بخناقها واذنيه ، فبالرغم من تبديل الطقس ، كان زغرو قد اشعل ناراً لاهبة ، وكان مرسو يحس بدمه يصعد حتى صدغيه ويضرب اطراف اذنيه . وكان الآخر ، صامتاً ما يزال ، يتابعه بعينيه . ومشى باتريس نحو الصندوق من الناحية الاخرى للدقأة ، ومن غير ان يلقي نظره على العاجز وضع حقيبتة على الطاولة . واذ وصل هنا ، احس بارتعاش خفي عند عرقوبيه . فتوقف ووضع في فمه لفافة اشعلها بطريقة خرقاء بسبب يديه المقفرتين . وسمع حركة خفيفة وراءه . التفت واللفافة بعد في شفتيه . كان زغرو ما يزال ينظر اليه ، ولكنه كان قد اغلق اللحظة كتابه . وبينما كان مرسو يحس بالنار تلهب ركبتيه حتى الألم ، كان يقرأ العنوان مقابلاً « رجل البلاط » لبلتازار غراسيان . وانحنى من غير تردد على الصندوق وفتحه . كان المسدس يلمع بجميع منحنياته ، سواداً على بياض ، كقط معتنى به . وكان مرسو ما يزال يمسك برسالة زغرو وقد امسكها بيده اليسرى والمسدس باليمنى . وبعد تردد ، دس السلاح تحت ذراعه اليسرى وفتح الرسالة . كانت تحتوي على صفحة واحدة من ورق كبير القطع مغطاة ببعض الاسطر فقط بخط زغرو الكبير المقرن :

« انني لا اقتل الا نصف انسان . وبودي ان لا يحفظ احد علي ضغينة من ذلك وان يجد في صندوق الصغير اكثر كثيراً مما يلزم للتعويض على اولئك الذين خدموني حتى الآن ، بالاضافة الى ذلك ، فان بي رغبة في ان يكرّس لتعسين نظام المحكومين بالاعدام . ولكني اشعر ان ما اطلبه كثير . »

طوى مرسو الرسالة وهو منقبض . وفي تلك اللحظة ، اتى دخان سيكارتته يخزّ عينيه بينما كان قليل من الرماد يتساقط على المغلف . ونفض الورقة ، ووضعها

بشكل بارز على الطاولة، واستدار ناحية زغرو . وكان هذا ينظر اللحظة الى المغلف بينما ظلت يدها القصيرتان العضلتان تحيطان بالكتاب . وانحنى مرسو وادار مفتاح الصندوق واخذ حزمة الاوراق التي لم يكن يرى منها سوى حافتها من خلال غلافها المصنوع من ورق جريدة . وفيما كان سلاحه تحت ذراعه ملاً بيد واحدة حقيبته بانتظام. كان هناك اقل من عشرين رزمة من فئة المئة. وايقن مرسو انه كان قد أحضر حقيبة اكبر مما يجب. وترك في الصندوق حزمة بمئة ورقة . واذا أغلق حقيبته ، ورمى لفافته التي لم يستهلك سوى نصفها في النار ، امسك المسدس بيده اليمنى واقترب من العاجز .

كان زغرو ينظر الآن الى النافذة ، وسمعت سيارة تمر يرفق امام الباب ، يرافقها صوت مضغ خفيف . وكان زغرو ، من غير ان يتحرك ، يبدو وكأنه يتأمل الجمال اللانساني كله لهذا الصباح النيساني . وحين احس فوهة المسدس على صدغه الايمن ، لم يحول عينيه . ولكن باتريس الذي كان ينظر اليه رأى عينيه تمتلئان بالدموع . وكان هو الذي اغلق عينيه . تراجع خطوة الى الوراء واطلق . ظل لحظة مستندا الى الجدار وعيناه ما تزالان معلقتين . فاحس ان دمه ما بقيه يخفق عند اذنيه . ونظر ، كان الرأس قد سقط على الكتف اليسرى والجسم لم يكسد ينحني ، حتى ان زغرو لم يكن يرى بعد ، وانما كان يرى فحسب جرح هائل في تضاريس دماغه من عظم ودم . واخذ مرسو يرتعش ، واستدار حول المقعد وتلمس اليد اليمنى فجعلها تمسك بالمسدس ورفعها الى مستوى الصدغ ثم تركها تسقط . سقط المسدس على ذراع المقعد ومن ثم على ركبي زغرو . وفي هذه الحركة لاحظ مرسو فم العاجز وذقنه . كان يحمل التعبير الرصين والحزين نفسه اذ كان ينظر الى النافذة . وفي هذه اللحظة ، انبعث صوت بوق حاد امام الباب . ومرة اخرى ، سمع النداء اللاحقي . ولم يتحرك مرسو الذي كان ما يزال منحنيًا على المقعد . وانباً انطلاق سيارة برحيل الجزائر . واخذ مرسو حقيبته ، وفتح الباب الذي كانت قبضته تلمع تحت شعاع شمسي ، فخرج خافق الرأس جاف اللسان ، واجتاز باب الدخول ، ومضى بخطى كبيرة . لم يكن هناك

أحد ، ماعدا فريق من الاولاد عند زاوية الساحة الصغيرة . وابتعد . وحين  
بلغ الساحة ، احس فجأة بالبرد فارتمش تحت سترته الخفيفة . وقد عطس  
مرتين فامتأ الوادي الصغير باصداً واضحاً ، ساخرة ، كان يلور السماء يرتفع بها  
رويداً رويداً . وبالرغم من انه كان يترنح قليلاً ، فقد توقف وتنفس بقوة . ومن  
السماء الزرقاء كانت تتساقط ملايين الالبتسامات الصغيرة البيضاء . وكانت  
تلعب على الاوراق التي كانت مائتال غخضلة بالمطر على فليس المرات الرطب ،  
وتنداح نحو البيوت ذات القرميد الدموي الغض ، وتصعد بمنحة نحو بحيرات  
الهواء والشمس حيث كانت تفيض الساعة . وكان هدير ناعم ينبعث من  
طائرة صغيرة كانت تبهر في الاعالي . وفي تفتح الهواء هذا وخصوبة السماء  
تلك ، كان يبدو ان مهمة الانسان الوحيدة تكمن في ان يعيش ، وان يكون  
سعيداً . كان كل شيء يصمت في كيان مرسو . وهزته عطسة ثالثة فاحس بما  
يشبه حمى . واذاك هرب من دون ان ينظر حوله يلفه صرير حقيبتيه ووقع  
خطاه . وحين وصل الى منزله ، وضع حقيبتيه في زاوية ، فتمدد ونام حتى  
منتصف الاصيل .



## الفصل الثاني

كان الصيف يلاً المرفأ بالصيحات وبالشمس . وكانت الساعة الحادية عشرة والنصف . وكان النهار يتفتح عند منتصفه ليسحق الارصفة بكل ثقل حرارته . وامام عناير غرفة التجارة في مدينة الجزائر ، كانت « سفن » ذات هياكل سوداء ومداخن حمراء تشحن اكياس قمح . وكان عطرها الغباري الخفيف يختلط بروائح القطران الكثيفة التي كانت شمس حارة تفتتحها . وامام كوخ صغير تنبعث منه رائحة الدهان وشراب الانيسون ، كان رجال يشربون وكان يهلواتات عرب يرتدون سراويل قصيرة حمراء يديرون ويقلبون اجسادهم على البلاط الملتهب امام البحر ، حيث تطفز الاشعة ، ومن غير ان ينظروا اليهم . وكان عمال الارصفة الذين يحملون الأكياس يدلّفون على اللوحين المطاطين اللذين كانا يصعدان من الرصيف الى مرفأ السفن الشاحنة . واذ يصلون الى اعلى ، مقطوعين فجأة في السماء وعلى الجون ، بين الروافع والصواري ، كانوا يتوقفون لحظة مبهوتين تجاه السماء ، تلتصع عيونهم في الوجه المغطى بطينية بيضاء من العرق والغبار ، قبل ان يندفعوا كالعميان في قعر السفينة ، ذات روائح الدم الساخن . وفي الهواء الملتهب ، زارت صفارة زئيراً متصلاً .

وفجأة توقف الرجال على اللوح متبلبلين . ذلك ان احدهم كان قد سقط بين الرافدات التي كانت من التقارب بحيث تكفي لامساكه . ولكن ذراع التوت خلفه ، فانسحقت تحت عبء الكيس الهائل ، فكان يصرخ من الالم . في هذه اللحظة ، خرج باتريس مرسو من مكتبه . وعلى عتبة الباب ، قطع عليه الصيف تنفّسه ، فتنشق بلء فمه المفتوح بخار القطران الذي كان

يجرح حلقه . وتوقف امام العمال . كانوا قد استخرجوا الجريح ، فاذا هو منقلب على الالواح المعبرة ، وقد ابيضت شفتاه من الالم وتدلّت ذراعه المكسورة فوق مرفقه . وكانت شظية عظم قد اخترقت اللحم في جرح كربه كان الدم يسيل منه . وكانت قطرات الدم السائلة على طول الذراع تتساقط ، واحدة إثر الأخرى ، على الاحجار الملتهبة وهي تحدث صريراً خفيفاً يرقع منه بخار . كان مرسو يتأمل ، جامداً ، هذا الدم عندما امسك احدهم بذراعه . كان هو « ايمانويل » صبي السباق . وكان يدله على شاحنة كانت تتقدم نحوهم وسط جلجلة السلاسل والانفجارات . « هل تلحق بها » ؟

وركض باتريس . لكن الشاحنة تجاوزتها . وفي الحال ، اندفعا اثرها ، غارقين في خضم الضجيج والغبار ، لاهثين وأعميين ، ولكن على قدر من الصحو يكفيهما ليحسا انها محمولان باندفاع الجري الجامح في ايقاع الروافع والآلات المجنون ، مصهو بين برقص الصواري عند الأفق وترنح هياكل السفن المبعدة التي كانت يحاذيانها . وتعلق مرسو اولاً ، وهو واثق من قوته وخفته ، وقفز على الطائر . وساعد ايمانويل لكي يجلس متدي الساقين . ووسط الغبار الابيض والطباشيري ، والجو الخائث المضيء الذي كان يهبط من السماء ، والشمس والديكور الخيالي الرحب للرفأ المتلي بالصواري والمرافع السوداء ، انطلقت الشاحنة مبتعدة بكل سرعتها وهي تقفز بمرسو وايمانويل على بلاط المرفأ اللامتساوي ، فكأنما يضحكان حتى انقطاع النفس ، في دوار الدم كله .

حين وصلت الشاحنة الى بلكور ، نزل مرسو مع ايمانويل الذي كان يغني . كان يغني بصوت عال وناشز .

وكان يقول لمرسو :

— انك تفهم . هو شيء ما يصعد في الصدر عندما اكون مسروراً ، عندما استحم .

كان ذلك صحيحاً . فان ايمانويل كان يعني وهو يسبح ، وكان صوته الذي  
يج من الحصر فاخنتق ازاء البحر ، بوقع حركات ذراعيه القصيرتين العضلتين .  
وسلكا طريق ليون . كان مرسو يمشي بخطى واسعة ، فارع الطول ، مؤرجحاً  
كتفيه العريضتين العضلتين . وفي طريقته بوضع قدمه على الرصيف الذي  
سيجتازه ، وانزلاق جنبه لتفادي الحشد الذي كان ، في بعض اللحظات يحيط  
به ، كان المرء يحس انه امام جسد فتي وقوي بشكل غريب ، قادر على ان  
يحمل صاحبه الى اقصى درجات الفرح الجسدي . واذا ما استراح ، فقد كان  
يريح جسده على جنب واحد ، مع تكلف للمرونة طفيف ، على غرار رجل كان  
قد تعلم من الرياضة رشاقة الجسد . كانت عيناه تلمعان تحت قوسي حاجبيه  
البارزين قليلاً . وبينما كان يتحدث مع ايمانويل ، كان يشد على ياقته بجرعة آلية ،  
وبرعشة متشنجة لشفتيه اللتويتين المرتجفتين ، لكي تكشف عنقه . ودلفا الى  
مطعمهما وجلسا ثم اكلا بصمت . كان الجو رطباً في الظل . وكان في المطعم  
ذباب واصطفاق صحون واحاديث . وقد تقدم نحوهما المعلم «سيليست» : كان طويلاً  
ومشورباً ، وكان يحك بطنه فوق مريوله الذي كان يسقطه فيما بعد . قال ايمانويل :

— كيف الحال ؟

فيقول سيليست :

— كالشيوخ .

ودار الحديث . وكان سيليست وايمانويل يتبادلان عبارات من مثل : « اوه  
ايها الزميل » وريثات على الكتف . وكان سيليست يقول :

— « الشيوخ ، اترى ، انهم بلهاء . يقولون ان الرجل الحقيقي هو من كان في  
الخمسين . ولكنهم يقولون ذلك لأنهم في حوالى الخمسين . كان لي صاحب تنحصر  
سعادته بابه . كانا يخرجان معاً . وكانا يسرقان في الانفاق . وكانا يذهبان الى  
الكازينو . وكان صاحبي يقول : لماذا تريدني ان اذهب مع جميع هؤلاء

الشيخوخة ؟ انهم يروون لي كل يوم انهم تناولوا مسهلاً، وانهم يعانون من كبسدهم .  
فالافضل ان اذهب مع ابني . وحين يعلق يوماً بفتاة ما ، أنظاها رباني لا أرى  
شيئاً وأصعد في قطار . الى اللقاء وشكراً . انني سعيد، سعيد جداً . . كان  
ايمانويل يضحك . قال سيليست :

.. بالطبع ، صحيح انه لم يكن مرجعاً عظيماً ولكنني كنت احبه كثيراً ..  
وتوجه الى مرسو قائلاً :

— ثم انني افضل هذا على صاحب اعرفه . عندما كان ينجح ، كان  
يحدثني وهو يرفع رأسه ويقوم بحركات صغيرة . اما الآن ، فهو اقل زهواً ،  
لقد اضاع كل شيء .

قال مرسو :

— يستحق ذلك .

— اوه ا يجب ان لا يكون المرء مسرفاً في الحياة . لقد سعد بايامه ، وكان على  
حق .. لقد كان لديه تسعة آلاف فرنك . آه لو كنت مكانه !

قال ايمانويل :

— ما كان عساك تفعل ؟

— كنت اشتريت بيتاً ريفياً . ووضعت قليلاً من الدبق على السرة وعلماً .  
وهكذا سأنتظر لأرى من اين تأتي الريح .

كان مرسو يأكل بهدوء ، الى ان بدأ ايمانويل يقصّ على المعلم معركة الشهيرة  
في المارن .

— لقد جعلونا ، نحن الزواوين ، قنّاصة .

قال مرسو يوداعة :

— إنك تضجرتنا .

— لقد قال القائد فيها : « هجومًا » أو كنا بعد ذلك نهبط . كان ذلك شبيهًا بوهدي ذي اشجار . وكان قد قال لنا بأن نطلق ، ولكنه لم يكن أمامنا أحد . وعندها مشينا ، إلى الامام هكذا . ثم فجأة ، بدأت الرشاشات تطلق نيرانها . وتساقطنا بعضنا فوق بعض . كان هناك عدد كبير من الجرحى والاموات ، إلى حد أن الدم المنساب في اعماق الوادي كان يكفي لمعبوره في قارب . وكان هناك من يصرخ : « ماما ! كم كان ذلك فظيماً » .

نهض مرسو ، وعقد عقدة بمنشفته . وذهب المعلم يسجل فطوره بالطبشورة خلف باب المطبخ . كان هذا هو سجل حساباته . وعندما كان يحدث أي احتجاج ، كان يخرج الباب من مفاصله ويأتي بالحسابات على ظهره . وفي إحدى الزوايا ، كان « روني » ، ابن المعلم ، يأكل بيضة برشت . قال إيمانويل :  
— يا للسكين ! انه مصدور !

وكان ذلك صحيحاً . فان روني غالباً ما كان صامتاً وورصيناً . لم يكن شديد التحافة . ولكن نظره كان براقاً في تلك اللحظة ، كان أحد الزبائن يشرح له ان السل « يشفي مع الوقت والاحتياطات » . كان يوافق ويحيب برزانة بين لقمتين . وجاء مرسو يرتفق المشرب على مقربة منه ليشرب قهوة . كان الآخر يتابع : « .. الم تعرف « جان بيريز » صاحب شركة الغاز ؟ لقد مات . لم يكن يشكو سوى رئة مريضة . ولكنه اراد ان يغادر المستشفى إلى بيته . وهناك كانت زوجته . وزوجته كانت حضاناً ، اما هو ، فان المرض هو الذي كان قد احاله هكذا . انت تفهم . كان دائماً يعتليها . اما هي فلم تكن تريد . ولكنه كان فظيماً . وهكذا فان مرتين او ثلاثاً كل يوم كانت كافية

لأن تقتل رجلاً مريضاً .

وتوقف رونه عن الطعام ، وكانت قطعة من الخبز ما تزال بين أسنانه .  
كان يحدق في الرجل . وقال أخيراً :

– أجل ان الألم يأتي بسرعة . ولكن ذهابه يحتاج الى وقت .

وكتب مرسو اسمه بإصبعه على المصفاة المغطاة بالبخار . ورف بعينه . بين هذا  
المصدور الهاديء وبين ايبالويل المتخيم بالأغاني ، كانت حياته تتأرجح كل يوم في  
روائح القهوة والقطران ، منفصلة عن ذاته وعن اهتمامه ، غريبة عن قلبه وعن حقيقته .  
فالأشياء ذاتها ، التي كان يمكن لها في مناسبات أخرى ، ان تثير حماسه ، كان  
يصمت عنها ما دام يعيشها ، حتى اللحظة التي يجد فيها نفسه من جديد في غرفته .  
فيضع كل قوته وحذره ليطفئ شعلة الحياة التي تتأجج فيه .

كان المعلم يقول :

– اسمع يا مرسو . انت المتعلم تقول هذا .

قال باتريس :

– نعم . كفى . سوف تتذكر ذلك .

– اوه : انك تبدو نشيطاً ، هذا الصباح !

ابتسم مرسو ، واذا غادر المطعم ، اجتاز الطريق وصعد الى غرفته . كانت  
تقع فوق ملحمة للخيال . كان وهو منحني على شرفته ، يشم رائحة الدم ويستطيع  
ان يقرأ اللافتة . « الى اشرف مكسب للانسان » . تمدد على سريره ، واشعل  
لغافة ثم ثام .

كان مرسو يعيش في الغرفة التي كانت تسكنها امه . كانا قد سكنا طويلا في  
هذه الشقة الصغيرة المؤلفة من ثلاث غرف . واذا أصبح وحيداً ، اجتر مرسو غرفتين  
لبراميلي من اصدقائه كان يعيش مع اخته ، وكان قد احتفظ لنفسه بأفضل



غرفة . كانت امه قد توفيت في الخامسة والستين من عمرها . كانت جميلة ، وبسبب ذلك كانت تعتقد ان بإمكانها ان تكون مغناجة وان تعيش برخاء وان تلعب . واذا ناهزت الاربعين ، ادركها مرض مريع ، فتجردت من اثوابها ومن زينتها ، واقتصرت على ارتداء قمصان المرضى ، مشوهة الوجهه بانتفاخات فظيمة ، مسمرة تقريبا بسبب ساقها المورمتين الحاملتين ، واخيرا نصف عمياء تتخبط يحنون في شقة بلا الوان كانت تتركها للأهمل . وكانت الضربة فجائية وحاسمة . لقد كانت مصابة بالسكري الذي كانت قد اهلته وزادته غنى بحياتها اللامبالية . ولقد كان هو مجبرا على ان يوقف دروسه وعلى ان يعمل . وحتى موت امه ، كان ما يزال يتابع القراءة والتفكير . وطوال عشر سنوات ، تحملت المريضة هذه الحياة . وكان هذا التعذيب قد استمر طويلا الى حد جعل الذين يحيطون بها يعتادون على مرضها وينسون ان بإمكانها ان تنهار بسبب اصابها الخطرة تلك . وماتت ذات يوم . وفي الحي ، كان مرسوم موضع رثاء . كانوا يتوقعون الكثير منه عند الدفن . كانوا يتذكرون حب الابن الكبير لأمه . وكانوا يستحلفون الاقرباء البعيدين الا يبكوا لكي لا يحس باقريس بألمه يكبر . كانوا يبتهلون اليهم ان يحموه وان يتكرسوا له . اما هو ، فقد ارتدى افضل ما امكنه واخذ يتأمل الترتيبات ، وقبعته بيده . وقد رافق الموكب ، وحضر المراسم الدينية ورمى قبضة التراب وتقبل التعازي . مرة واحدة فقط اندهش وعبر عن استيائه من قلة السيارات المخصصة للضيوف . وكان هذا كل شيء . وفي اليوم التالي ، كان بالامكان رؤية هذا الاعلان على احدى نوافذ الشقة : « للايحار » . وهو الآن يعيش في غرفة امه . في الماضي ، كان للفقر بالقرب من امه نكهة عذوبة . فعندما كانا يلتقيان في المساء ويأكلان بصمت حول قنديل الكاز ، كانت سعادة خفية تكمن في هذه البساطة وهذا الحصن .

كان الحبي من حولها صامتاً . وكان مرسو ينظر الى فم امه التعب وبتنسم . وكانت تبتسم هي ايضاً ، فكان يعود الى الاكل . وكان القنديل يدخن قليلاً فتصلحه امه بالحركة المنهكة ذاتها ، الذراع اليمنى وحدها ممدودة مرعدة الجسم الى الخلف . وكانت تقول :

— الست جائعاً بعد ؟ فيجيبها : « لا »

كان يدخن او يقرأ . في الحالة الاولى كانت امه تقول :

— بعد ا

وفي الحالة الثانية :

— اقترب من القنديل ، انك ستلتف نظرك .

والآن ، على النقيض ، فان الفقر في الوحدة كانت بؤساً فظيماً . وحين كان مرسو يفكر بحزن في الفقيده ، كانت شفقتة في الواقع ترتد اليه . كأنه باستطاعته ، ان يسكن بطريقة اكثر رفاهية . ولكنه كان متعلقاً بهذه الشقة وبرائحة الفقر فيها . هنا ، كان على الاقل ، يلتقي بما قد كانه . وفي حياة كان يسعى فيها الى ان ينمحي ، كانت هذه المجاهدة القذرة الصابرة تتيح له ان يعود الى ذاته في ساعات الحزن والاسف . كان قد ترك على الباب قصاصة من ورق مقوى رمادي مهدب الطرف . كانت امه قد كتبت عليه اسمها بالقلم الأزرق ، وكان قد احتفظ بالسريير النحاسي القديم ، المنطى بالحريز وصورة جده بلحيته الصغيرة وعينيه الصافيتين الجامدتين . وكان على المدفأة تماثيل لرعاة وراعيات يحيطون بساعة قديمة معطلة وقنديل كاز لم يكن يشعله قط تقريباً . ولم يكن الديكور المريب لكراسي القش المخوفة قليلاً وللخزانة ذات المرأة المصفرة ولطاولة الزينة الفاقدة احدى الزوايا ، لم يكن لهذا كله وجود بالنسبة

له لأن العادة كانت قد محت كل شيء . كان يتجول في ظل شقة لا تكلفه اي جهد . اما في غرفة جديدة ، فقد كان عليه ان يعتاد على الجديد ، وان يقاوم فيها ايضاً . وكان يريد ان يقلّص المساحة التي يمنحها للعالم وان ينأى حتى 'يستهلك كل شيء . وكانت هذه الغرفة تخدمه لتحقيق هذا الهدف ؛ فقد كانت تطل من جهة على الطريق ومن جهة اخرى على سطحية مغطاة دائماً بالغسيل . وفيما وراءها كانت تطل على حدائق صغيرة للبرتقال مرصوفة بين جدر عالية . في بعض الاحيان ، في ليالي الصيف ، كان يترك الغرفة يغمرها الظلام فيفتح النافذة على السطحية والحدائق المظلمة . من الليل واليه ، كان اربح البرتقال يتصاعد قوياً جداً ويلفه بغللاته الشفافة . في كل ليلة من ليالي الصيف ، كانت غرفته وكان هو نفسه يفرقان في هذا العطر اللطيف والمكثف في آن واحد . وكما لو انه كان ميتاً لأيام طويلة ، كان يفتح نافذته لأول مرة على الحياة .

استيقظ وفمه مليء بالنعاس ومغطى بالعرق . كان الوقت متأخراً جداً . سرح شعره وهبط مسرعاً وقفز في ترام . في الساعة الثانية وخمس دقائق كان في مكتبه . كان يعمل في غرفة كبيرة غطيت جدرانها الأربعة بربعمئة واربع عشر مشكاة كانت الاضبارات مكدسة فيها . ولم تكن الغرفة قدرة ولا كريهة ، ولكنها كانت توحى في كل ساعة من ساعات النهار بمرقعة من شأنها ان 'تبلي الساعات الميتة . كان مرسو يحقق في وثائق شحن البضائع ، ويتبرجم قوائم مؤونات المراكب الانكليزية . ومن الساعة الثالثة حتى الرابعة كان يستقبل الزبائن الراغبين بشحن الطرود . كان قد طلب هذا العمل الذي لم يكن في الواقع يروق له . ولكنه في اول الأمر كان قد وجد فيه باباً للخروج الى الحياة . لقد كان يجد فيه وجوهاً حية ومرتابين ومراً ، ونسمة يحس فيها اخيراً بقلبه يخفق . وهكذا كان يفلت من وجوه ضاربات الآلة الكاتبة الثلاث

ومن مدير المكتب السيد لانغوا . احدى الضاربات كانت على قدر لا بأس به من الجمال . وكانت متزوجة منذ فترة وجيزة . اما الأخرى ، فكانت تعيش مع امها ، والثالثة كانت سيدة مسنة قوية ومحترمة كان مرسو يحب حديثها المزهر والتحفظ الذي كانت تبديه حول موضوع : « مصائبه » على حد تعبير لانغوا . وكان لهذا الأخير مواقف حرجية ، كانت السيدة هريون تنتصر فيها عليه دائماً . كانت تحتقر لانغوا بسبب العرق الذي كان يلتصق بسرواله وبردفه ويسبب الذعر الذي كان يعتريه امام المدير واهياناً على التلفون وهو يسمع صوت حمام او شخصية مرموقة . وكان المسكين يحاول عبثاً ان يهدي المرأة المسنة او ان يحظى على رضاها . وهذا المساء كان يترنح وسط المكتب . قال :

— « اليس صحيحاً ، يا سيدة هريون انك تجدينني خفيف الروح ؟ »

كان مرسو يترجم كلمة « نبات » ويتأمل فوق رأسه المصباح وكمة المصباح المصنوع من الكرتون الاخضر المثنى . وكانت تجاهه روزنامة ذات ألوان صارخة تحمل صورة « صفح تيرتوفاس Terreneuvas » . وكان مصفوفاً على طاولة مبللة ونشافة ودواة ومسطرة . وكانت نوافذه تطل على كومسات كبيرة من الاخشاب مجلوبة من النزويج بواسطة سفن شاحنة صفراء وبضياء . كان يرهق السمع . خلف الحائط ، كانت الحياة تنفس تنفساً كبيراً صامتاً وعميقاً على البحر وعلى المرفأ . وحرره جرس الساعة السادسة ، البعيد جداً منه والقريب جداً في آن واحد . كان ذلك يوم سبت .

حين عاد الى منزله ، استلقى ونام حتى ساعة العشاء . قلب لنفسه بيضاً واكله رأساً من الصحن ( من غير خبز لأنه كان قد نسي ان يشتري خبزاً ) ثم استلقى ونام في الحال حتى صباح اليوم التالي . واستيقظ قبيل الغداء . ورتب هندامه ، هبط لياكل ؛ وحين صعد ، حل كلمتين متقاطعتين وقص بدقة اعلاناً عن املاح كروشن ألصقه في دفتر مملوء بصور الأجداد المهرجين وهم ينزلون

درجات السلاسل . واذا اتم ذلك ، غسّل يديه ووقف على الشرفة . كان العصر رائعا . على ان البلاط كان دهنيا . وكان الناس قليلين ومسرعين ايضا . اما هو فقد كان يتابع بعينه كل انسان بدقة ثم يتركه بعد ان يبعد عن نظره ليعود لمارّ جديد . كانوا في بادئ الامر عائلات تتنزه ، منها عائلة من صبيين صغيرين في لباس البحارة ، البنطال تحت الركبتين ، مرتبكين في ثيابها الخشنة ، وقتاة صغيرة ذات شريطة كبيرة وردية وحذاءين اسودين مبرنقين . وخلفهم كانت ام مرتدية فستانا من الحرير الكستنائي اشبه بحيوان هائل تلفه افعى ، واب اكثر تميزاً ، عصاه في يده . بعد قليل مرّ شباب الحلي ، شعورهم ملتمعة وربطات عنقهم حمراء ، سترااتهم مخصورة جداً ، في صدرها منديل مطرز واحذية ذات رؤوس مربعة . كانوا يذهبون الى دور السينما ، وسط المدينة ، وكانوا يسرعون نحو الترام وهم يضحكون ضحكات عالية . بعدهم ، اقترت الطريق شيئا فشيئا . كانت الافلام قد بدأت في كل مكان . وكان الحلي قد اخلي الآن للجانوتين والقطط ، وكانت السماء ، بالرغم من صفاها ، صافية ، بلا اشراق فوق اشجار التبّ التي كانت تحيط بالشارع . وتجاه مرسو ، اخرج بائع التبغ كرسيّاً امام بابه فاقتعدها وهو يستند بذراعيه على المسند . وكانت الحافلات المزدحمة منذ لحظات قد فرغت تقريباً . وفي القهوة « شي بيارو » كان الصبي يكتسّ النشار في القاعة الفارغة . وادار مرسو كرسيه ووضع كبايع التبغ . ودخن لفافتين الواحدة تلو الاخرى . ودخل الغرفة من جديد فاقتطع قطعة من الشوكولا وعاد ليأكلها عند النافذة . وبعد قليل اظلمت السماء ثم انقشعت على الاثر . ولكن مرور الغيوم كان قد خلق على الطريق ما يشبه وعداً بالمطر جعلها اكثر اظلاماً . عند الخامسة ، وصلت الحافلات وسط الضجيج حاملة من ملاعب الضاحية ، عناقيد من المتفرجين متعلقين على المدرجات والحوارج . اما الحافلات التالية ، فقد اعادت اللاعبين الذين كانوا يُعرفون من حقائبهم الصغيرة . كانوا يهدرون ويغنون ملء الرئتين ان ناديتهم لن يفنى ابدًا .

كثير منهم ارسل اشارات الى مرسو . وصاح احدهم « لقد هزمنام » . فاكتمنى مرسو بالقول : نعم ، وهو يهز رأسه . وتكاثرت العربات بعد ذلك . بعضها كانت قد غطت بالأزهار جوانحها ورادتها . ثم مال النهار بعض الشيء فوق السقوف ، فأصبحت السماء محمرة . ومع المساء الوليد ، انتعشت الشوارع من جديد . وكان المتزهون يعودون . كان الأولاد المتعبون يبكون او يستسلمون للجزر . في هذه اللحظة أفرغت قاعات سينما الحي في الشارع موجة من المشاهدين . وكان مرسو يجد فيما يقوم به الشبان من حركات مصممة ومتباهية التفسير اللاواعي لفيلم المغامرات الذي كانوا قد شاهدوه . اما الذين كانوا يعودون من دور المدينة ، فقد وصلوا بعد ذلك بقليل ، كانوا اشد رصانة ، وبين الضحكات والتهريجات المقهقة كان يبرز من جديد في عيونهم وفي هيتهم نوع من الحنين لهذه الحياة ذات النمط المتألق التي كانت السينما قد فتحت لهم . ظلوا في الشارع يروحون ويغدون ، وعلى الرصيف المواجه لمرسو تكوّن اخيراً تياران : كانت قنيتات الحي المسترسلات الشعر يتناسكن بالاذرع فيشكلن احد التيارين ، والشباب من جهة اخرى كانوا يطلقون النكات التي كن يضحكن لها وهن يُدرن رؤوسهن . كان الشبان الرصينون يدخلون المقاهي او يشكلون على الرصيف فرقاً كان الموج البشري الذي يجري يحاصرها كأنها جزر صغيرة . وها هو الشارع مضاء والمصابيح الكهربائية ، تسحب النجوم الأولى التي كانت تطلع في الليل . وتحّت مرسو ، كانت الارصفة تمتد بكل حمولتها من الرجال والاضواء . وكانت المصابيح تلمّع البلاط الدهني ، والحافلات ترسل لمسافات منتظمة انعكاساتها على شعر لماع او شفة رطبة وضحكة او سوار من فضة . بعد قليل ، مع الحافلات التي غدت اقل عدداً ، ومع الليل المسود فوق الاشجار والمصابيح ، فرغ الحي شيئاً فشيئاً واجتاز القط الاول على مهل الشارع الخالي من جديد ، وفكر مرسو بالعشاء . لقد كان يشكو الماء خفيفاً

في عنقه لأنه ظل وقتاً طويلاً مستنداً على ظهر كرسيه . وقد نزل ليشتري خبزاً  
وقطائر ثم أعد طعامه وأكل . وعاد الى النافذة . كان اناس يخرجون . وكان  
الجو قد ترطب . وارتمش فاغلق زجاجه وعاد الى المرأة ، فوق المدفأة .  
ما خلا بعض الامسيات التي كان يستقبل فيها مارت او يخرج معها ومراسلته  
مع صديقاته في تونس ، فان حياته كلها كانت تنتظم في منظور باهت تعكسه  
المرأة لغرفة يتجاور فيها مصباح كاز قدر مع كسرات خبز .

قال مرسو : يوم احد آخر ينقضي .



## الفصل الثالث

عندما كان مرسو يتنزه في الشوارع ، مساء ، وكان فخوراً بأن يرى الاضواء والظلال تتألق كذلك على وجه « مارت » ، كان كل شيء يبدو له سهلاً بشكل رائع ، قوته ذاتها وشجاعته . هذا الجمال الذي كانت تسكبه له كل يوم كأنها اكثر النشوات رهافة ، كان يكنّ لها العرفان بأن تعلنه امام الناس والى جانبه . ان تكون مارت تأفة ، لكان ذلك عذبة العذاب نفسه وهو يراها سعيدة في رغبات الرجال ، كان سعيداً بأن يدخل هذا المساء معها الى السينما ، قبيل بدء الفيلم ، بينما كانت القاعة ملاءى تقريباً . كانت تتقدم أمامه ، تحوطها نظرات الاعجاب بوجهها المزدهر الباسم وجمالها العنيف . وكان ، وهو يمسك قبعته من اللبديّة في يده ، يشعر بارتياح خارق كأنما هو وعي داخلي لأناقته الخاصة . وقد اتخذ هيئة متعالية ورصينة وبالغ في تهذيبه ، والمخرف لكي يتيح للعامة ان تمر ، وخفض مقعد مارت قبل ان تجلس . فعل ذلك بسبب رغبة اقل بالتباهي بما كان يفعله بسبب هذا العرفان الذي كان يملأ قلبه ويفعمه حباً لجميع الكائنات وإذا كان قد اعطى العامة شيئاً مبالغاً به فلانه كذلك لم يكن يعرف كيف يعوض قرحه ولأنه كان يعبد بهذه الحركة اليومية معبوداً تلمع ابتسامته الباهرة كزيت في عينيه . وعند الاستراحة ، حين كان يحول في الصالة المغطاة بالمرايا ، فقد كان وجهه سعادته هو ما تعكسه له الجدران ، مألوفة القاعة بصور رشيقة وراعية لغامته الفارعة القاتمة وابتسامه مارت المرتدية الواناً زاهية . صحيح انه كان يحب الوجه الذي كان يراه لنفسه على هذا النحو ، والفم المرتعش حول اللقافة والحمى المحسوسة في عينيه الغارتين قليلاً ،

ولكن جمال انسان ما يعكس حقائق داخلية وعملية . وعلى وجهه يُقرأ ما يستطيع فعله ، ولو كان ذلك ثمناً للاجدوى الرائعة لوجه امرأة . كان مرسو يدرك ذلك جيداً ، مما كان يدغدغ غروره ، ويتسم لشياطينه الخفية .

حين بلغ القاعة ، فكر انه وحده لم يكن يخرج ابداً في فترة الاستراحة ، مفضلاً التدخين والاستماع الى اسطوانات الموسيقى الخفيفة التي كانت تدار في تلك اللحظة . ولكن اللعبة ، كانت مستمرة هذا المساء ، وجميع الفرص لتمديداتها ولتجديدها كانت ملائمة . غير ان مارت ، عندما همت بالجلوس ردت سلام رجل جالساً خلفها بعدة صفوف . واذ سلم مرسو بدوره ، خيل اليه انه لاحظ ابتسامة خفيفة على زاوية شفتيه . وجلس من غير ان يتنبه الى اليد التي كانت مارت تضعها على كتفه لكي تحدثه والتي كان سيتقبلها بفرح لو جاءت قبل ذلك بدقيقة كدليل جديد لهذا السلطان الذي كانت تعترف له به .

— من هو ؟

قالها متوقفاً ان تأتبه « من » طبيعية جداً .

— اتعرفين « هذا الرجل » .

قالت لمارت : آه . ثم سكنت .

— من هو ؟

— هل تحرص كثيراً على معرفته .

قال مرسو : لا .

والتفت قليلاً الى الورا . كان الرجل ينظر الى رقبة مارت من غير ان

يرف شيء في وجهه . كان جميلاً كفاية ، ذا شفتين جميلتين شديديتي الحمرة ، ولكن العينين كانتا بلا تعبير وبلا عمق . واحس مرسو بدفقات من الدم تصعد الى صدغيه . وامام نظره الذي اسود ، كانت الالوان البزاقة لهذا الديكور المثالي الذي كان يعيش فيه منذ ساعات قد غدت فجأة ملطخة بالسخام . اية حاجة كانت به ليسمعها تتكلم . كان متأكداً من ان هذا الرجل كان قد نام مع مارت ، وما كان في نفس مرسو كالرعب ، كان تصوّر ما كان بوسع هذا الرجل ان يقوله لنفسه . كان يعرف ذلك جيداً هو الذي كان قد فكر على هذا النحو : « تستطيع دائماً ان تفاخر » . وحين راودته الفكرة ان هذا الرجل ، في هذه الدقيقة نفسها ، كان يستعيد حركات معينة لمارت وطريقتها في وضع ذراعها على عينيها لحظة اللذة ، وحين فكر ان هذا الرجل ايضاً كان قد حاول ان يبعد هذه الذراع ليقراً هياج الالهة الكثيرة الصاحب في عيني المرأة ، اذ ذاك احس مرسو ان كل شيء فيه ينهار . وبينما كان جرس السينما يعلن استئناف الفيلم ، كانت عيناه المغمضتان تمتلئان بدموع الغضب . كان ينسى مارت التي لم يسبق لها ان كانت الا ذريعة لفرحه ، والتي اصبحت الآن الجسد النابض لغضبه . وظل مرسو مغلقاً عينيه فترة طويلة حتى اللحظة التي فتحتها فيها على الشاشة . كانت سيارة تدهورت ، وفي صمت عميق للجوقة كلها ، ظلت احدى العجلات وحدها تدور على مهل ، جارقة في دائرتها العنيدة كل العار والخزي المنبعثين من قلب مرسو المستاء . وكانت حاجة اليقين في ذاته تدفعه الى نسيان كرامته . سألتها :

— مارت ، هل كان عشيقك ؟

قالت :

— نعم . ولكن الفيلم يستهويني .

في هذا اليوم ، بدأ مرسو يتعلق بمارت ، كان قد تعرف عليها لبضعة شهور

خلت . وكان قد ذُهل بجبالها وأناقته . ففي وجهها العريض قليلاً ، ولكن المتناسق ، كانت لها عينان مذهبتان بلغتا من اناقة الخضاب بحيث كانت تبدو اشبه بآلهة مرسومة الوجه بيد حاذقة . وكانت بلاهة طبيعية تلمع في عينيها فتزيد هيئتها اللامبالية الهادئة تعبيراً . وحتى الآن ، في كل مرة كان مرسو يعقد فيها مع امرأة ما اولى الحركات المألوفة ويعي الشقاء الذي يفرض على الحب والشهرة ان يتحدا بالطريقة ذاتها ، كان يفكر بالقطيعة قبل ان يكون قد ضمّ هذا الكائن بين ذراعيه . الا ان مارت كانت قد ادركته في لحظة كان فيها مرسو يتحرر من كل شيء ومن ذاته . ذاك ان وهم الحرية والاستقلال لا يدركه الا من كان لا يزال يعيش بالأمل . اما بالنسبة لمرسو ، فلم يكن لشيء آنذاك اي حساب . فعندما استرخت مارت بين ذراعيه للمرة الاولى ورأى في الملامح التي جعلها التقارب مشوشة قليلاً ، رأى الشفتين الجامدتين حتى الآن كزهرتين مرسومتين تحفقان بالحياة وتمتدان نحوه ، اذ ذاك ، لم ير المستقبل من خلال هذه المرأة ، وإنما احس بقوة رغبته كلها تتركز فيها وتنتلي بهذا التجلي . وكانت الشفتان اللتان كانت تقدمهما له تبدوان له رسالة من عالم بلا اهواء ، مليء باللذة ، يصيب فيه قلبه الرضى . ولقد احس ذلك كأنه المعجزة . وكان قلبه يخفق بعاطفة اوشك ان يظنها حباً . وعندما احس بالبحر الريان المرن تحت اسنانه ، فأنما عضّ فيه نوعاً من الحرية الوحشية عضاً هائجاً بعد ان كان قد داعبته طويلاً بشفتيه بالذات . وغدت عشيقته في ذلك اليوم نفسه . وبعد فترة ، كان ائتلافها في الحب تاماً ، ولكنه ، وقد عمقت معرفته لها ، فانه كان قد فقد شيئاً فشيئاً حدس هذه الغرابة التي كان قد قرأها فيها والتي كان ما يزال يحاول ، وهو مائل على فهمها ، ان يبتئسها احياناً . وهكذا لم تكن مارت ، التي كانت قد اقلت تحفظ مرسو وبرودته ، لتدرك قط لماذا كان قد طلب منها ذات يوم ان تعطيه شفتيها وهما في حافلة غاصة بالناس . وكانت قد قدّمتها له وهي مذعورة . وكان قد قبلها على هواه بادئاً بمداعبتها بشفتيه ثم عاضاً إياها على

مهل . وكانت قد قالت له على الأثر : « ماذا دهالك ؟ » واقتدر وجهه بالبسمة التي كانت تحبها : الابتسامة المقتضبة التي تحجب . فقال « احب ان أحسني قلقاً » ليدخل مجدداً في صمته . انها لم تكن تفهم كذلك قاموس باتريس . فبعد فعل الحب ، في تلك اللحظة التي يجمع فيها القلب في الجسد المحرر المسترخي ، ممتلئاً فقط بالشغف الحنون الذي نكته لكلب لطيف ، كان مرسو يقول لها باسم : « مرحباً يا تجلر » .

كانت مارت ضاربة على الآلة الكاتبة . ولم تكن تحب مرسو . بيد انها كانت معلقة به بقدر ما كان يثير فضولها ويدغدغ غرورها . فمئذ اليوم الذي تحدث فيه ايمانويل ، وكان مرسو قد قدمه لها فقال عنه :

— « ان مرسو ، لو تعلمين ، شخصية . انه يخبي شيئاً في ذاته . ولكنه يغلفه ، من اجل ذلك يُخدع به الانسان » .

منذ ذلك اليوم اخذت تنظر اليه بفضول . فلما كان يجعلها سعيدة في الحب ، فلم تكن لتطلب منه مزيداً ، مستريحة على افضل وجه لهذا العشيق الصموت القليل الصخب الذي لم يكن يطالبها قط بشيء . وكان يأخذها حين كانت تريد طوعاً ان تأتي . الا انها كانت فقط مرتبكة بعض الشيء امام هذا الرجل الذي لم تكن تلاحظ عيبه .

غير انها فهمت ذلك المساء ، بعد خروجها من السينما ، ان شيئاً ما يستطيع ان يؤثر فيه . وصمتت طوال الامسية ثم نامت عنده . فلم يلمسها الليل كله . غير انها ، ابتداء من هذه اللحظة ، أفادت من تفوقها . لقد سبق ان قالت له : انها قد كان لها عشاق . وعرفت كيف تجد الادلة الضرورية .

وفي اليوم التالي ، وعلى غير عاداتها ، جاءت الى منزله اثر انتهاء عملها . فوجدته نائماً . فجلست عند اسفل السرير النحاسي من غير ان توقظه . كانت يرتدي قميصاً كانت اكمامه المرفوعة تكشف بياض الساعد العاضل الاسمر . كانت

يتنفس بانتظام بصدرة وبطنه معاً . وكانت ثنيتان بين حاجبيه تضفيان عليه  
تعبير قوة وإصرار كانت تعرفه جيداً فيه . وكانت خصلات شعره تهطل على  
جبينه البالغ السمة الذي كان ويريد ينبض فيه . وكان يبدو ، وهو مستقل على  
كتفيه العريضتين ، وذراعه ممتدان على طول الجسد واحد ساقيه نصف  
منشئية ، أشبه بإله متوحد عنيد ملقى ، وهو نائم ، في عالم غريب . وامام  
شفتيه الريانتين المكتنزتين بالنوم ، اشتتهه . فقد فتح في تلك اللحظة عينيه نصف  
فتحة وأغلقها وقال من غير غضب :

- لا احب ان ينظر الي احد وانا نائم .

وقفزت على عنقه وقبلته . فظل جامداً .

قالت :

- اوه . يا حبيبي نزوة اخرى من نزواتك .

- لا تناديني حبيبي ، ارجوك . لقد سبق ان قلت لك ذلك .

وتددت ملتصقة به ونظرت اليه جانبياً .

- انني اتساءل من تشبه في وضعك هذا .

رفع سرواله وادار لها ظهره . كثيراً ما كانت مارت ، في السينما ، ومع بعض  
الغرباء في المسرح ، معتادة على حركات مرسو وتشنجاته . والحق انه كان يجد في  
ذلك التأثير الذي كان يمارسه عليها ، غير ان هذه العادة التي كانت تدغدغ غروره  
غالباً كانت تضايقه اليوم . والتصقت بظهره ، وتلقت على بطنها وعلى صدرها حرارة  
نومه كلها . وكان المساء يهبط بسرعة كبيرة والغرفة تفرق في الظلمة . وفي داخل  
البيت كان يتصاعد بكاء اطفال قد ضربوا ونواء واصطفاق باب . وكانت مصابيح  
الشارع تضفي الشرفة . وكانت حافلات نادرة تمر . وبعد ذلك كانت رائحة  
الحي المكونة من الانيسون واللحم المشوي تتصاعد الى الغرفة هبات ثقيلة .



واحست مارت بالنعاس يستولي عليها .

قالت :

— يبدو عليك الغضب منذ البارحة . من اجل ذلك اتيت . الا تقول شيئاً ؟

وهزته . فظل مرسو جامداً . كان يراقب في الظلام ، الذي غدا كثيفاً ، الحنية اللامعة لهذا الموضوع تحت طاولة الزينة .

قالت مارت :

— اسمع . ان رجل البارحة قد بالغت في أمره . لم يكن عشيقى .

قال مرسو :

— لم يكن في الحقيقة ، لم يكن تماماً .

ولم يكن مرسو يقول شيئاً . كان يرى بوضوح الحركات والابتسامات . وقد كز على أسنانه . ثم نهض وفتح النافذة ثم عاد وجلس على السرير . وتكوّرت بلسقه وأمرت يدها بين زرين من أزرار قميصه ، وداعبت صدره .

واخيراً سألها :

— كم عشيقاً عرفت ؟

— إنك تضجّرني .

ثم سكّت مرسو .

قالت : — حوالى العشرة .

كان النعاس عند مرسو يستدعي التدخين .

سألها وهو يخرج علبته :

— هل اعرفهم ؟

لم يكن يرى الا بياضاً مكان وجه مارت . وكان يفكر :

« كما في الحب » .

— اجل ، تعرف بعضهم في الحي .

كانت تحك رأسها بكتفه ، وتتخذ صوت فتاة صغيرة كان دائماً يوهي عزيمته

قال لها :

— اسمعي يا صغيرتي . ( وأشعل لفافته ) إفهميني . ستعديني بأن تقولي لي  
اسماءهم . اما بالنسبة للآخرين ، اولئك الذين لا اعرفهم ، فستعديني ايضاً ، ان  
نحن لقيناهم ، بأن تدلّيني عليهم .

فارتدت مارت الى الوراء : — آه ! لا .

زمرت سيارة بعنف تحت نوافذ الغرفة . ثم زمرت طويلاً مرة اخرى ثم  
مرتين . ورن جرس الترام في اعماق الليل . وعلى رخام طاولة الزينة كان المنبه  
يرسل تكتكات باردة . قال مرسو بجهد :

— انني اطلب منك ذلك لأنني اعرف نفسي ، فاذا لم اعرف ، فسيكرر  
الأمر . كلما لاقيت شخصاً سأسأل نفسي وسأخجل . هذا هو الأمر . سيشط  
بي الخيال . لست ادري ان كنت تفهميني .

كانت تفهم تماماً . فذكرت الامماء . واحد فقط كان مجهولاً بالنسبة لمرسو .  
اما الأخير ، فقد كان شاباً كان يعرفه . وبه كان يفكر ، لأنه كان يعرفه جيلاً  
ومحتفى به من النساء . وما كان يثيره في فعل الحب ، للمرة الاولى على الاقل ،  
كانت هذه الصميمية الفظيعة التي كانت المرأة تتقبلها ، وان تتلقى في بطنها بطن  
مجهول . وكان يتعرف ، في هذا النوع من العفوية والبساطة والدوار ، على سلطان  
الحب المثير القذر . وهذه هي الصميمية التي كان يتصورها في بادئ الأمر بين  
مارت وعشيقها . في هذه اللحظة ، جلست على حافة السرير مسندة قدمها

اليسرى على فخذها اليمنى . وخلعت أحد حذائيهما ثم الآخر وتركتهما يسقطان  
أحدهما ممدداً على جنبه والآخر واقفاً على كعبه العالي . وأحسن مرسو بحلقه  
ينقبض . وكان شيء ما في معدته يتأكله .

قال وهو يتسّم :

— اهكذا كنت تفعلين مع رونيّه ؟

ورفعت مارت عينيه وقالت :

— ما الذي تتصوره ! انه لم يكن عشيقني الا مرة واحدة .

قال مرسو :

— آه !

— ثم انني لم اخلع حذائي .

ونفض مرسو . كان يراها مقلوبة ، مرتدية ثيابها ، على سرير شبيه بهذا  
السريّر ، مستسلمة بكاملها وبلا تحفظات . وصرخ : « أغلقي فمك ! » ومشى  
نحو النافذة .

قالت مارت :

— آه يا عزيزي !

وكانت ما تزال جالسة على السريّر وقدماهما عاريتان بجواربهما وعلى الارض .

وكان مرسو ممدداً ، وهو ينظر الى لعب المصابيح على السكك الحديدية . لم  
يسبق له قط ان كان على مثل هذا القرب من مارت . واذ فهم انه في الوقت  
نفسه كان ينفتح عليها اكثر قليلاً ، كان الزهو يحرق عينيه . وعاد اليها . وبين  
السبابه المطوية والابهام أمسك جلد العنق الدافئ تحت الاذن ، وابتمس .

— وهذا الـ « زغرو » ، من هو ؟ انه الوحيد الذي لا أعرفه .

قالت مارت وهي تضحك :

— انني ما ازال أراه ، هو .

وشدّ مرسو اصابعه على الجلد .

— انه عشيقي الأول . انت تقدر . كنت صبيّة صغيرة ، وكان يكبرني قليلاً . اما الآن ، فساقيه مقطوعتان . وهو يعيش وحيداً . من اجل ذلك ، اذهب احياناً لأراه . انه ذو شخصية . ومثقف . فهو يقرأ دائماً . وفي تلك الايام كان تلميذاً . انه مرح جداً ، انه شخصية بالاختصار . زد على ذلك انه يقول لي مثلك . يقول لي : تعالي الى هنا ، يا تجلّ .

فكتر مرسو . وترك مارت التي انقلبت على السرير وهي تغمض عينيها . بعد فترة ، جلس الى جانبها ويبحث ، وهو ينحني على شفتيها المنفرجتين ، عن دلائل الوهية الحيوانية ونسيان الم كان يعتقد انه معيب . ولكنه ترك فمها من غير ان يذهب أبعد من ذلك .

وحين رافق مارت ، حدثته عن زغرو . قالت :

— لقد حدثته عنك . قلت له ان حبيبي كان جميلاً جداً وقوياً جداً . واذ ذاك قال لي انه يود لو يتعرف عليك . وقال لي : « ان ارى جسماً جميلاً ، فهذا يساعدني على ان اتنفس جيداً . »

قال مرسو :

— انه شخص معقّد آخر .

كانت مارت تريد ان تسره ، واعتقدت ان الوقت قد حان لتذكر حادثة الفيرة الصغيرة التي كانت تفكر بها ، والتي كانت تعتقد انه كان هو سببها على نحو ما .

— اوه ! انه اقل تعقيداً من صديقاتك !

قال مرسو وهو صادق التعجب :

— اية صديقات ؟

— انك تعرفهن . الصغيرتان الحقاوان ، كما تعرف .

الصغيرتان الحقاوان ، كانتا روز وكليز ؛ وهما طالبتان من تونس كان مرسو قد تعرف عليهما . ومعها فقط كان يتبادل المراسلة الوحيدة في حياته . وقد ابتسم وأخذ برقبة مارت ومشيا طويلا . كانت مارت تسكن امام ساحة العمال اليدويين . وكان الطريق طويلا ، وكان يلمع بكل نوافذه في القسم الأعلى بينما كان الأسفل ، وكله حوانيت مقفلة اسود حزينا .

— قل يا حبيبي . الا تحبها ؟ هاتين الحقاوين الصغيرتين ؟

قال مرسو :

— اوه . لا .

كانا يسيران ، ويد مرسو على رقبة مارت المغطاة بحرارة الشعر .

قالت مارت بلا تمهيد :

— انك تحبني .

وانتعش مرسو فجأة وضحك ضحكا شديدا .

— هوذا سؤال خطير جداً .

— أجب .

— ولكن في سننا ، لا يجب المرء . ان احدنا يروق للآخر ، وهذا كل شيء .  
فيا بعد ، عندما نكون شيوخا وعاجزين ، نستطيع ان نحب . اما في سننا ،  
فنعتقد اننا نحب . هذا كل شيء .  
وبدت حزينة ، ولكنها قبلته .

قالت :

— الى اللقاء يا حبيبي .

وعاد مرسو أدراجه في الطرقات السوداء . كان يسير بسرعة ، وفيما كان يعي لعبة عضلات فخذه على طول قماش السروال المالس ، أخذ يفكر بزغرو وبساقيه المقطوعتين؛ كانت به رغبة للتعرف عليه . وقرّر ان يطلب من مارت ان تقدمه اليه .

أحسن مرسو ، في المرة الاولى التي رأى فيها زغرو ، بالقيظ . بيد ان زغرو كان قد حاول ان يخفف من وطأة الازعاج الكامن في تصوّر لقاء عشيقته امرأة واحدة ، وبمحضورها . لأجل ذلك كان قد حاول ان يجعل مرسو شريكاً وهو يعامل مارت « كفتاة طيبة » ويضحك بشدة . وظل مرسو مصدوماً . ولقد باح بذلك بعنف لمارت ما ان وجدا بفردهما .

— انني لا أحب نصف الحصص . ان هذا يضايقني ويمعني من التفكير .  
وانني أقل حباً ايضاً لنصف الحصص التي تُفأخِر .

أجابت مارت ، ولم تكن قد فهمت :

— اوه ! انت ! لو كنا نستمتع اليك .

على ان ضحكة زغرو الفتية التي كانت قد أغاظته في بادئ الامر ، استرعت فيما بعد انتباهه واهتمامه . كما ان الغيرة التي أسيء تقنيها والتي كانت تقود مرسو في حكمه كانت قد اختفت عندما رأى زغرو . ونصح مارت التي كانت تذكر ، في براءة كلية ، بالوقت الذي كانت تعرّفت فيه على زغرو قائلاً :

— لا تضيعي وقتك . لا يمكن ان اكون غيوراً من شخص لا يملك ساقيه بعد . يكفي ان افكر بكما انما الاثنين حتى أراه كدودة ضخمة عليك . انت تفهمين اذن . ان ذلك يلويني من الضحك . لا تتبعني نفسك ، يا ملاكي .

وفيا بعد ، عاد وحده الى منزل زغرو . وكان هذا الاخير يتكلم كثيراً وبسرعة ويضحك ثم يسكت ، وكان مرسو يجس براحة تامة في الغرفة الكبيرة التي كان زغرو يقيم فيها بين كتبه ونحاسياته المراكشية ، والنار وانعكاساتها على وجه بوذا الرصين الخيري على مكتب عمله . كان يستمع الى زغرو ، وما كان يسترعي انتباهه لدى العاجز ، هو انه كان يفكر قبل ان يتكلم . واما ما تبقى من الشهوة المكبوتة والحياة المضطربة التي كانت تحيي هذا الجذع المضحك ، فقد كان كافياً لكي يمسك بمرسو ويولد فيه ، لو انه استسلم لمزيد من العفوية ، شيئاً كان يمكن ان يعتبره صداقة .



## الفصل الرابع

بعد ظهر هذا الأحد ، كان رولان زغرو ، بعد ان كان قد تكلم ومزح كثيراً ، صامتاً قرب النار في مقعده الكبير الدائر ، منبثقاً من اغطيته البيضاء . وكان مرسو ، وهو يستند الى المكتبة ، ينظر الى السماء والى القرية من خلال ستائر النوافذ الحريرية البيضاء . كان قد أتى تحت مطر خفيف ناعم ، وخوفاً من ان يصل أبكر مما ينبغي ، فقد ظل يتيه طوال ساعة في الريف . كان الجو كثيباً ، ومن غير ان يستمع الى الريح ، كان مرسو يرى مع ذلك الاشجار والأوراق وهي تتلوى بصمت في الوادي الصغير . ومرت ، من ناحية الطريق ، عربية حلاب وسط ضجيج كبير من الحديد والخشب . وفي الحال تقريباً اخذ المطر يتساقط بغزارة ويفرق النوافذ . ومع ترافق هذا الماء الشبيه بالزيت السميكة على الزجاج ووقع اجوف وبعيد لحواف الحصان الذي يبدو الآن اكثر وضوحاً من ضجيج العربية ، وابل المطر المذنوق المستمر ، وهذا الرجل - القطرميز امام النار وصمت الغرفة ، كل ذلك كان يتخذ وجه الماضي الذي كانت كتابته الصامته تنفذ الى قلب مرسو كما نفذ الماء منذ قليل الى حذائه الرطبين والبرد الى ركبتيه المحميتين على نحو رديء بقماش رقيق . منذ لحظات مضت ، كانت المياه المتبخرة التي تهطل ، لا ضباباً ولا مطراً ، قد غسلت وجهه كيد رقيقة ، وكشفت عينيه الغائرتين عميقاً . كان ينظر الآن الى السماء ، وفي اعماقها كانت غيوم سوداء تتزاحم بلا انقطاع سرعان ما تنمحي وسرعان ما تحل محلها سحائب أخرى . وكانت ثنية بنطاله قد اختفت ومعها اختفت الحرارة والثقة التي

يصاحبها رجل طبيعي في تنزهه في عالم مصنوع من أجله . ومن أجل ذلك اقترب من النار ومن زغرو ، جالساً بمواجهته في ظل المدفأة العالية وبمواجهة السماء دائماً . ونظر اليه زغرو وحول عينيه ورمى في النار كرة من الورق كان يجعلها في يده اليسرى . وفي هذه الحركة المضحكة كما هي دائماً ، تلقى مرسو الضيق الذي كان يسببه له مرأى هذا الجسد نصف الحي . وابتسم زغرو ولكنه لم يقل شيئاً . وفجأة احنى وجهه نحوه . كان اللهب يلعب على خده الايسر وحده . ولكن شيئاً ما في صوته وفي نظره كان مشحوناً بالحرارة .

قال :

— يبدو عليك انك متعب .

وبدافع من حياء أجاب مرسو بهذه الكلمات فقط :

— اجل ، انني « ضجر » .

وبعد فترة، نهض وسار نحو النافذة ، وأضاف وهو ينظر الى الخارج :

— أرغب في ان اتزوج او انتحر او اترك بمجلة «أو لوستراسيون» .  
وبالاختصار حركة يائسة .

وابتسم الآخر :

— انك فقير يا مرسو . وهذا يفسر نصف قرفك . اما النصف الآخر فانك مدين به إلى اقرارك اللامعقول الذي تحمله للفقير .

كان مرسو ما يزال يوليه ظهره وينظر الى الاشجار في مهب الريح . وملس زغرو بيده الغطاء الذي كان يغطي ساقيه .

— انت تعلم ان الانسان يحكم على ذاته دائماً بالنسبة للتوازن الذي يقيمه بين حاجات جسده ومتطلبات فكره . اما انت ، فانك تحاكم نفسك بقذارة ، يا مرسو . انك تعيش عيشة سيئة ، عيشة المتوحش .

وإدار رأسه نحو باتريس .

— هل تحب ان تسوق سيارة ؟

— نعم .

— هل تحب النساء ؟

— عندما يكنّ جيلات .

— هذا ما كنت أعنيه .

وأستدار زغرو ناحية النار .

بعد لحظة بدأ يقول : « كل هذا ... » .

التفت مرسو وأخذ ينتظر نهاية الجملة ، وهو مستند على الزجاج الذي كان يلتوي قليلاً خلفه . ظلّ زغرو صامتاً . كانت ذبابة باكورية تطنّ على الزجاج . والتفت مرسو وحبسها تحت يده ثم أطلقها . وكان زغرو ينظر اليه ، وقال له متريداً :

— لا أحب ان أتكلّم يجيّد . لأنه لن يكون هناك إلا شيء واحد يمكننا التحدث به : التبرير الذي يضيفه المرء على حياته . اما أنا ، فأنني لا أرى كيف أستطيع ان أبرر لنفسي ساقىّ المبتورتين .

— « وأنا كذلك » . قال زغرو من غير ان يتلفت .

وأنفجرت فجأة ضحكة زغرو النضرة :

— شكراً . انك لا تترك لي أي وهم .

وغيره لهجته : — ولكنك محق في ان تكون قاسياً . على انّ هناك أمراً أودّ ان أقوله لك .

وصمت برصانة . وأقبل مرسو يجلس تجاهه .

وكرر زغرو :

— اسمع وانظر الى . انهم يساعدونني على قضاء حاجاتي ، وبعد ذلك يغسلونني ويفشفونني . وأسوأ ما في الأمر انني أستأجر شخصاً ليقوم بهذا العمل . ومع ذلك ، فاني لن أقوم أبداً بحركة لأختصر حياة اؤمن بها كثيراً . انني قد أتقبل ما هو أسوأ أيضاً ، ان أكون أعمى وأخرس وكل ما تريده ، شريطة ان أحس فقط في أحشائي هذه الشعلة الداكنة والمحتدمة التي هي أنا وأنا الحي . ولن أفكر إلا بان أحمد للحياة أنها أتاحت لي ان احترق بعد .

وأرتقى زغرو إلى الخلف لاهثاً بعض الشيء . كان يُرى الآن أقل من ذي قبل ، فقط انكاساً كبيراً كانت أعطيته تخلفه على ذقنه . إذ ذاك قال :

— وانت يا مرسو ، ان واجبك الوحيد هو ان تعيش بحسبك . وان تسعد .  
قال مرسو :

— لا تجعلني أضحك . تصورني بساعاتي الثماني في المكتب . آه ! لو كنت حراً ! .

وكان يحس بالانتعاش وهو يتكلم ، ويعاوده الأمل كما كان في السابق احياناً ، وقد ازداد اليوم قوة بدافع من الاحساس بالعون . وكانت ثقة ما تأتيه من ان بوسعه اخيراً ان يكون موضع ثقة . وقد هدأ قليلاً وبدأ يسحق لفافة ، وأستأنف بمزيد من الرزاقة :

— لسنوات خلت ، كان كل شيء امامي . وكانوا يحدثونني عن حياتي وعن مستقبلي . كنت أقول نعم . بل كنت أفعل ما كان ينبغي علي ان أفعله من أجل ذلك . ولكن ذلك كله بدأ آنذاك يكون غريباً علي . ان أتشبث بالاشخصية ، هذا ما كان يشغلني . وان لا اكون سعيداً « ضدياً » . انني أسيء الشرح . ولكنك تفهم يا زغرو .

قال الآخر :

— أجل .

— وما ازال الآن ، لو أتيح لي الوقت .. لن يكون امامي إلا أن أستسلم .  
وكل ما قد يحصل لي ، علاوة على ذلك ، فأنما هو كالطر فوق حصاة ، انه يُنعشها  
وهذا بذاته جميل جداً . وذات يوم سوف تلتهب بالشمس . لقد بدا لي دائماً ان  
السعادة انما هي هذا بالضبط .

كان زغرو قد شبك يديه . وفي الصمت الذي تلا ، بدأ المطر يتضاعف .  
وانتفخت الغيوم في ضباب لا متميز . وأظلمت الغرفة بعض الشيء كما  
لو كانت السماء تصب على حمولتها من العتمة والصمت . وقال العاجز باهتمام :

— ان للجسد دائماً المثال الذي يستحقه . ومثال الحصاة هذه ، ان كان  
بإمكانني ان أقول ذلك ، يحتاج ، لكي يدعمه ، جسد نصف — إله .  
قال مرسو مندهشاً قليلاً :

— هذا صحيح ! ولكن لا تبألغ بشيء . لقد قُتبت بكثير من الرياضة ، وهذا  
كل ما الأمر . وأنا قادر على ان أمضي بعيداً في الشهوة .  
وفكر زغرو .

قال :

— نعم . وهذا افضل لاي . ان تدرك حدود جسدك ، هذه هي البسيكولوجية  
الصحيحة . ثم انه ليس لذلك أهمية . ليس لدينا الوقت لنكون « نحن أنفسنا » .  
ليس لدينا الوقت الا لنكون سعداء . ولكن هل يضجرك ان تحدّث لي فكرتك  
في اللاشخصية ؟ .

قال مرسو :

— لا .

ثم صمت .

شرب زغرو جرعة من شايبه ، وترك فنجاناه المليء . كان يشرب قليلاً جداً ،

لأنه لا يريد ان يبول إلا مرة واحدة في اليوم . وبقوة الارادة ، كان يتوصل دائماً تقريباً إلى ان يخفف ثقل الاذلال الذي كان يعمل به كل يوم . ليس هناك توفيرات صغيرة . انما هي مآثرة كغيرها . وهذا ما كان قد قاله لمرسو ذات يوم . وتساقطت لأول مرة بضع قطرات من الماء في المدفأة ، وأنت النار ، وكان المطر يتضاعف على الزجاج . وفي جهة ما أصطفق باب . وفي الطريق المقابل كانت السيارات تتتابع كجردان لماعة . وزمرت إحداها طويلا . وعبر الوادي الصغير ، كانت الرنين الأجوف الحزين يجعل حيز العالم الرطب أكثر رجابة ، حتى ان ذكراه بالذات غدت بالنسبة لمرسو مرّة كبة من صمت هذه السماء وضيقها .

— انني استميتك عذراً يا مرسو . فقد مضى عليّ وقت طويل من غير ان اتحدث عن بعض الأمور . ولذلك فانا لم أعد أعرف أو لا أعرف كما ينبغي . عندما أنظر إلى حياتي وإلى لونها الحقيقي ، أحس فيّ ما يشبه زلزالاً من الدموع ، شاتي في ذلك شأن هذه السماء . انها مطر وشمس معاً . منتصف نهار ومنتصف ليل . آه ، يازغرو ! أفكر في هذه الشفاء التي قبلتها ، والولد الفقير الذي كنته ، وفي جنون الحياة والطموح الذي يعصف بي في بعض اللحظات . انني كلّ ذلك في آن واحد . أنا متأكد من ان هناك لحظات لن تعرفني فيها . لا أدري ، فانا متطرف في الشفاء مغالٍ في السعادة .

— أتلعب على عدة مستويات في آن واحد ؟

قال مرسو بحدة :

— نعم . ولكن لا كهاوٍ . كلما فكرت في مسيرة الألم والفرح هذه في ذاتي ، أدرك جيداً وبحماس شديد ان اللعبة التي ألعبها ، هي ، من بين جميع الألعاب ، أكثرها رصانة واشدها إثارة .

كان زغرو يبتسم .

— هل لديك إذن شيء تقوم به ؟

قال مرسو بعنف :

— لديّ حياتي لأكسبها . غير ان هملي وهذه الساعات الثماني تحول بيني وبين ذلك .

وصمت وأشعل اللقافة التي كان ما يزال يمسكها بين أصابعه .

ثم قال قبل ان يطفئ عود الثقاب :

— ومع ذلك ، فلو كنت املك ما فيه الكفاية من القوة والصبر ...

ونفخ على عوده وسحق طرفه المفحم على ظهر يده اليسرى .

— انني أدرك جيداً إلى أي درك من الحياة سأصل . لن اجعل من حياتي تجربة . سأكون تجربة حياتي . أجل ، انني أدرك جيداً ايّ هوس سيملاّني بكل قوته . فيما مضى كنت أصغر مما ينبغي . وكنت أقف في الوسط . اما اليوم ، فقد أدركت ان المرء حين يعمل ويحب ويتألم فانما يعيش بالفعل ، ولكنه يعيش بقدر ما يشقّ ويتقبل قدره كأنعكاس فريد لقوس قزح من الفرح والأهواء هو نفسه بالنسبة للجميع .

قال زغرو :

— هذا صحيح . ولكنني كنت أستنتج . ستبقى وحيداً يوماً ما . وهذا كل شيء . ولكن اجلس واستمع إلي . ان ما سبق لك ان ذكرته لي قد أثار انتباهي . هناك شيء بالذات يهمني ، لأنه يؤكّد كل ما علمتني اياه تجربتي كإنسان ، انني احبك كثيراً يا مرسو بسبب جسدك على كل حال . انه هو الذي علمك كل هذا . واليوم يبدو لي انني استطيع ان اكلمك بقلب مفتوح .

عادم مرسو فجلس بهدوء ودخل وجهه في النور المحمر لنار توشك على النهاية . وفجأة ، وفي مربّع النافذة ، أحسّ خلف الستائر الحربية بما يشبه الانفتاح في



الليل . شيء ما كان يسترخي خلف الزجاج . ونفسه ضوء حليمي إلى الغرفة ،  
وتعرف مرسو على شفتي الانسان البوذي الكامل الساخرتين والمتحفظتين ، وعلى  
التحاسيات المنحوتة . تعرف على الوجه المألوف الحاطف الليلي المكوكة والقمرية  
التي كان يحبها كثيراً . كان ذلك كما لو أن الليل كان قد فقد بطانته من الغيوم  
فأخذ يلعب في ألقه الهادي . وعلى الطريق ، كانت السيارات تجري بسرعة أقل .  
وفي أعماق الوادي الصغير ، كان اضطراب مفاجيء يهيء المصافير للنوم . وكانت  
تسمع خطى امام البيت . وفي هذا الليل كانت الاصوات تزن أكثر اتساعاً  
واكثر صفاء كحليب على العالم . وبين النار المحمرة واختلاج نقطة الغرفة وبين  
الحياة الحقة للأشياء المألوفة التي كانت تحيط به ، كانت قصيدة خاطفة تنسج  
وتهيء مرسو ليتقبل من قلب آخر بثقة وحب ما سيقوله زغرو . انقلب قلباً  
على مقعده ، وامام السماء اخذ يستمع إلى قصة زغرو الغريبة .

بدأ يقول :

— انني متأكد من أننا لا نستطيع ان نكون سعداء بلا مال . هذا كل ما  
في الأمر . انني لا احب السهولة ولا الرومنطيقية . أحب ان افهم . لاحظت  
عند بعض النخبة انهم يعتقدون في نوع من التفاخر الروحي بأن المال غير ضروري  
للسعادة . هذه بلادة . وهذا خطأ ، وهو إلى حد ما جبن . أترى يا مرسو ،  
بالنسبة لرجل كريم النسب ، فان السعادة ليست امراً معقداً . يكفي ان يستعيد  
قدر الجميع ، ليس بإرادة الزهد كما يفعل عدد كبير من الرجال الكبار المزيفين ،  
ولكن بإرادة السعادة . على انك بحاجة إلى وقت لتكون سعيداً ، كثير في  
الوقت . السعادة هي أيضاً صبر طويل . وفي جميع الحالات تقريباً تُتلف  
حياتنا لنكسب مالاً . بينما يجب ، بالمال ، ان نكسب وقتنا . هذه هي المشكلة  
التي أثارت اهتمامي في وقت ما . انها دقيقة واضحة .

توقف زغرو وأغمض عينيه . وكان مرسو يتطلع إلى السماء باصرار . بعد

لحظة ، غدت أصوات الطريق والقرية مميزة ، واستأنف زغرو حديثه من غير ما استمعجال :

— . . . اوه ، انا أدرك جيداً ان غالبية الرجال الأغنياء لا يملكون أي حس بالسعادة ، ولكن السؤال ليس هنا . ان يكون لديك مال ، معنى ذلك هو ان يكون لديك وقت . انني لا أريد عن هذا . ان الوقت يُشترى . كل شيء يشترى . ان تكون او ان تصبح غنياً ، معناه ان تملك الوقت لتصبح سعيداً عندما يكون الانسان جديراً بان يكونه .

ونظر إلى باتريس وقال :

— مرسو ، عندما كنت في الخامسة والعشرين من عمري ، كنت قد أدركت ان كل كائن يملك حس السعادة وارادتها ومطلبها كان يحق له ان يكون غنياً . وكان مطلب السعادة يبدو لي اشرف ما في قلب الانسان . وكان كل شيء يُبرّر بها في نظري . ان قلباً نقيّاً كان كافياً لذلك .

وأخذ زغرو ، الذي كان ما يزال ينظر إلى مرسو ، يتكلم فجأة بهدوء اكثر ، بصوت بارد وقاس ، كما لو انه كان يود ان يخرج مرسو من شروده الظاهري :

— في الخامسة والعشرين بدأت أجمع ثروتي . لم أراجع امام الاحتيال . لم يكن لي ان أراجع امام أي شيء . وبعد سنوات ، كنت قد حققت ثروتي النقدية كلها . تصوّر يا مرسو ، ما يقرب من المليونين . كان العالم يفتح لي ، ومع العالم ، الحياة التي احلم بها في العزلة والاضطرام .

وعاود زغرو ، بعد فترة ، بصوت مخنوق :

— تلك هي الحياة التي كنت سأحياها ، لولا الحادث الذي أودى بساقي في

الحال تقريباً . لم أعرف كيف أنتهي . وها انا الآن . انك تدرك جيداً ، اليس كذلك ، انني لم اكن اريد ان اعيش حياة مستضعفة . ومنذ عشرين عاماً ومالي هنا ، بالقرب مني . لقد عشت بتواضع . لم اكده أنقص ثروتي .

وأمر يديه القاسيتين على جفنيه ، وقال بصوت اكثر انخفاضاً :

— يجب ألا تكون الحياة أبداً بقبيلات عاجز..

في هذه اللحظة ، كان زغرو قد فتح الصندوق الصغير الذي كان يلامس المدفأة ، وأشار الى خزانة نحاسية ضخمة مسمّرة مع مفتاحها . وكانت على الخزنة رسالة بيضاء ومسدس كبير اسود . وعلى نظرات مرسو الفضولية بلا تمتد ، كان زغرو قد ردّ بإبتسامة . كان ذلك بسيطاً جداً . ففي الايام التي كان يحس فيها اكثر بما ينبغي المأسة التي كانت قد حرمته من حياته ، كان يضع امامه هذه الرسالة التي لم يكن قد أرّخها ، والتي كانت تشكل قسماً من رغبته في ان يموت ، ثم كان يضع السلاح على الطاولة ويقرب المسدس ويلصق عليه جبينه ويدير عليه صدغيه ، ويخفف على برودة الحديد حتى وجنتيه . مكث على هذه الحالة وقتاً طويلاً وهو يترك اصابعه تنبه على طول الزناد ، ويحس فريضة التوقف ، الى ان يصمت العالم من حوله ويلفه النعاس . فينغمز كيانه كله في الاحساس بجديد بارد ومتسخ يمكن للموت ان يخرج منه . وحين يحس انه يكفيه ان يؤرخ رسالته وان يُطلق ، ويتحقق من عبثية سهولة الموت ، كانت تخيلته تنشط بما فيه الكفاية لتمثل له ، بكل فظاعته ، ما يعنيه ، في مفهومه ، نقي الحياة . فكان يحمل في نصف اغفائه رغبته كلها في ان يحترق بعد وسط الكرامة والصمت . وحين كان يستيقظ تماماً ، وفمه ما يزال مليئاً بريق مرّ ، كان يلعب انبوب السلاح ويدخل فيه لسانه ويدمدم اخيراً بسعادة مستحيلة .

— لقد أضعت بالطبع حياتي . ولكنني كنت على حق آنذاك . كل شيء من

اجل السعادة ضد العالم الذي يحولنا بمحاقتة وغفله .

وضحك زغرو أخيراً وأضاف :

— أترى ، يا مرسو ، ان سقوط حضارتنا وقساوتها تقاس بهذه المسلة السخيفة التي تقول بان ليس للشعوب السعيدة تاريخ .

كان الوقت متأخراً جداً . كان مرسو مخطئاً في تقديره ذلك . وكان رأسه يعمج بهيجان محموم ؛ وكان في فمه حرارة اللفافات التي كان قد دخنها وحازتها . وكان الضوء من حوله متواطئاً ابداً . ولأول مرة ، منذ ان استمع الى قصته ، التفت ناحية زغرو وقال :

— اعتقد أنني أفهم .

وكان العاجز تعباً من مجهوده الطويل يتنفس بخفوت . على أنه قال بجهد بعد فترة صمت :

— أودّ ان اتأكد من أنك قد فهمت . لا تجعلني أقول ان المال يصنع السعادة . انما اقصد فقط أنه بالنسبة لطبقة ما من البشر تصبح السعادة ممكنة . ( شرط ان يؤمن الوقت ) وان تملك المال هو ان تتحرر من المال .

كان مكوماً على كرسيه وتحت أغطيته . وكان الليل مطبقاً على نفسه فلم يعد مرسو يرى الآن رولان زغرو تقريباً . وتبع ذلك صمت طويل ، وكانت مرسو يرغب في ان يعيد الاتصالات ويتأكد من حضور هذا الانسان في الظلمة ، فنهض وكأنه يتحسس وقال :

— انها لمحاظة جميلة يتعرض لها المرء .

قال الآخر خفية :

— اجل . ومن الافضل ان نراهن على هذه الحياة بدلاً من ان نراهن على الأخرى . أما بالنسبة لي ، فانها بالطبع مسألة اخرى .

فكر مرسو : « خرقة اصفر في العالم » .

— منذ عشرين عاماً لم استطع أن أقوم بتجربة سعادة ما . هذه الحياة التي تنهشني ، لم اكن لأتعرّف عليها تماماً . وان ما يخيفني في الموت هو هذا اليقين الذي يحمله لي من ان حياتي قد استهلكت دوني . على الهامش . هل تفهم ؟

وبلا تمهيد ، انبعثت في الظلمة ضحكة فنية جداً :

— هذا يعني ، يا مرسو ، في حقيقة الأمر ، أنه ما يزال لي ، في حالتي ، بعض الأمل .

وتقدم مرسو بضع خطوات نحو الطاولة .

قال زغرو :

— فكر في هذا كله ، فكر فيه كله .

واكتفى الآخر بان قال :

— هل تستطيع ان اضيء النور ؟

— ان أردت .

ويدا أنف رولان وعيناه المستديرتان اكثر شحوباً في النور المشع . كان يتنفس بجهد . وقابل حركة مرسو ، وهو يمد اليه يده ، بأن هزّ رأسه وضحك ضحكاً أقوى مما ينبغي :

— لا تبالغ في حملي على محمل الجد . انت تدرك ان الهيئة المأساوية التي يتخذها الناس امام ساقى المبتورتين تغيظني دائماً .

وفكر الآخر : « انه لا يكثرث بي » .

- لا تنتظر بطريقة مأساوية إلا الى السعادة . فكر بهذا جيداً ، يا مرسو .  
ان لك قلباً نقياً . فكر بهذا .

ثم نظر اليه في عينيه وقال له بعد فترة :

- وأنت تملك ايضاً ساقين ، فذلك أمر لا يفسد شيئاً .

وابتسم إذ ذاك وحرك جرساً صغيراً :

- انصرف يا صغيري ، انني أريد ان أبول .

## الفصل الخامس

حين عاد مرسو الى منزله مساء هذا الأحد ، وكانت افكاره كلها متجهة  
نحو زغرو ، قبل ان يدخل غرفته ، سمع نواحاً كان يأتي من شقة كردونا ،  
البراميلى . طرق الباب فلم يجبه أحد . كان الاثنان مستمراً . فدخل من غير مسا  
تردد . كان البراميلى متكوراً على سريره ، وكان يبكي وهو يغصّ غصات طفل  
كبيرة . وكانت عند قدميه صورة امرأة عجوز . « لقد ماتت » . قال ذلك  
لمرسو بجهد كبير . وكان ذلك صحيحاً ، وكان قد مضى عليه وقت طويل .

كان اصمّ ، نصف أخرس ، شريراً وقظلاً . وكان حتى ذلك الحين قد عاش  
مع اخته . ولكنها ، اذ تعبت من شرارته ومن استبداده ، فقد التجأت بالقرب  
من اولادها . وبقي هو وحده ، حائراً حيرة رجل عليه ان ينظف منزله ويحضر  
طعامه لأول مرة . وكانت اخته قد روت نزاعاتها لمرسو الذي كانت قد التقت  
به يوماً في الشارع . وكان هو في الثلاثين من عمره ، قصيراً ، لا بأس بجماله .  
وكان قد عاش منذ طفولته مع امه . كانت المخلوق الوحيد الذي أوحى اليه  
بخوف موسوس اكثر مما هو مبرّر . كان قد أحبها بروحه الفظة ، أي بشراة  
واندفاع مزوجين . وخير دليل على محبته كانت طريقته في مضايقة المرأة  
المعجوز بتلفظه بأبداً الكلام عن الكهنة وعن الكنيسة . ولئن كان قد عاش



كل هذا الوقت الطويل مع امه ، فلأنه ايضاً لم يكن قد أوحى لأية امرأة بتعلق رصين . إلا ان المغامرات النادرة أو البيت العمومي كانت تسمح له ان يدعي الرجولة .

وماتت الأم . ومنذ ذلك الحين ، عاش مع اخته . كان مرسو قد اجرهما الغرفة التي كانا يحتلنها . وكان الاثنان وحدهما يشقيان ويرتقيان حياة طويلة قذرة وسوداء . وبصعوبة كانا يتمكنان من ان يتحادثا . ولهذا كانت تمر أيام كاملة من غير ان يتبادلا كلمة واحدة ، ولكنها كانت قد رحلت . ولقد كان اكثر كبرياء من ان يتشكى ويطلب منها ان تعود . كان يعيش وحده . في الصباح كان يأكل في المطعم وفي المساء يأكل في منزله شرائح من لحم الخنزير ، كان يترك غرفته في اسوأ حال من القذارة . على انه ، في بعض الاحيان ، في أول الأمر ، يوم الاحد ، كان يأخذ رقعة ويحاول ان ينظم الغرف بعض التنظيم . ولكن بعض سذاجات رجالية ، وقدراً على المدفأة ، كانت فيما مضى مزهرة ومزينة ، توشي بالأهمال الذي كان كل شيء يسبح فيه . وان ما كان يسميه توتيباً كان يرتكز على اخفاء الفوضى وستر ما كان مبعثراً وراء الوسائد او اكثر الاشياء غرابية على الصوان . ومع ذلك ، فقد انتهى به الامر الى السأم ، فلم يكن حتى ليصلح سريره وكان ينام مع كلبه على الاغطية الوسخة التنتنة . وكانت اخته قد قالت لمرسو : « انه يتخابث في المقاهي . ولكن المؤجرة قالت لي انها كانت قد شاهدته يبكي وهو يغسل ثيابه » .

وفي الواقع ، وبالرغم من القساوة التي كان عليها ، فان رعباً ما كان يستولي على هذا الرجل في بعض الساعات ويجعله يقدر مدي التخلي عنه . وكانت تقول لمرسو انها بالطبع كانت تعيش معه بداعي الشفقة . ولكنه

كان ينمها من ان ترى الرجل الذي كانت تحبّه . على ان ذلك لم يكن له كبير أهمية في سنّها . ولقد كان رجلاً متزوجاً . وكان يحضر لصديقه زهوراً كان قد قطفها من أسبجة الضواحي وبرتقالاً ومشروبات كان يكسبها من المعرض . صحيح انه لم يكن جيلاً؛ ولكن الجمال لا يؤكل سلطة . ثم انه كان طيباً جداً . كانت متعلّقة به هو الذي كان متعلّقاً بها . أياكون الحب شيئاً آخر ؟

كانت تغسل له ثيابه وتجهّد لكي تبقى نظيفاً . وكان من عادته ان يحمل مناديل مطوية على شكل مثلث ومعمّودة حول العنق ، وكانت تصنع له مناديل بيضاء جداً . وكان ذلك إحدى مسراتها .

ولكن الآخر ، الأخ ، لم يكن يريد ان تستقبل صديقها . فكان عليها ان تراه خفية . وكانت قد استقبلته مرة . وإذ فاجأها ، فقد حصلت مشاجرة عنيفة . كان المندبل المثلث قد بقي بعد ذهابها في ركن وسخ من الغرفة ، وكانت ان التجأت عند ابنها . وكان مرسو يفكر بهذا المندبل امام الغرفة الغدرة التي كانت تنفتح لعينيّه .

وفي تلك الفترة ، كان الناس قد رثوا مع ذلك للبراميلي ان يكون متوحداً الى هذا الحد . كان قد حدث مرسو عن زواج ممكن . وكان المقصود امرأة اكبر منه سنّاً

ولا شك انه كان يغريها أمل مداعباتٍ شابة وقوية . وكانت ان حصلت عليها قبل الزواج . وبعد فترة ، تراجع عشيقها عن المشروع ، معلناً انه كان يجدها أسنّ مما ينبغي . وبقي وحيداً في هذا البيت الصغير من الحي . وشيئاً

فشيئاً طوقته القذارة وحاصرته وضربت سريرته ، ثم غمرته على نحو راسخ .  
كان البيت قبيحاً أكثر مما ينبغي . وبالنسبة لرجل فقير لا يجد المسرة في بيته ، ثمة  
بيت أقرب مثلاً وأكثر غني ، ومضئاً ، ومرحّباً دائماً : هو المقهى . كان  
روّاد هذا الحي حيويين بنوع خاص . وفيه كانت تهين حرارة القطيع ، تلك  
الحرارة التي هي الملاذ الأخير ضد أهوال الوحدة ومتطلباتها القادمة . وقد  
اتخذ الرجل الأبكم فيه منزلاً ، كان مرسو يجده هناك في جميع الامسيات . وكان  
بفضلهم يؤخر الى أبعد حد ممكن لحظة الرجوع . وفيهم كان يستعيد مكانه  
بين البشر . وهذا المساء بالذات لم تكن المقاهي ، بلا شك لتكفي . واذا عاد  
الى منزله ، فلا بد انه كان قد اخرج هذه الصورة وايقظ معها اصداء الماضي  
الميت . فوجد من جديد تلك التي كان قد أحبها وعذبها . وفي الغرفة الكريمة ،  
وحيداً أمام لاجدوى حياته ، وقف مستجمعاً قواه الأخيرة ، ليسترد  
الماضي الذي كان يشكل سعادته . كان ينبغي افتراض ذلك على الأقل ،  
وافترض أن" التقاء هذا الماضي بمحاضره البائس قد فجر شرارة الهية ، مادام قد  
أخذ يبكي .

وككل مرة كان فيها مرسو يحيد نفسه أمام مظهر قاسٍ من مظاهر الحياة ،  
فقد كان بلا قوة ، يمتثل احتراماً أمام هذا الألم الوحشي . وقد جلس على  
الأغطية القذرة المدعوكه ووضع يده على كتف كردونا . كان امامه ، على  
شرشف الطاولة المشمع ، قنديل كاز ، وزجاجة خمر ، وفئات خبز ، وقطعة  
جبين وصندوق ادوات . وفي السقف تدلت بيوت انسجة العناكب . وكان  
مرسو ، الذي لم يسبق له ان دخل هذه الغرفة منذ موت امه ، يحسده  
بالقدارة والبؤس المزفت الذي كان يلاها ، الطريق الذي قطعه هذا الإنسان .

كانت النافذة التي تطل على الملعب مغلقة ، اما الأخرى فلم تكن  
تكون مفتوحة . وكان قنديل الكاز يرسل نوره المستدير الهاديء على

الطاولة ، وعلى قدمي مرسو وكردونا ، وعلى كرسي كان يواجهها على مقربة من الحائط . في هذه الأثناء كان كردونا قد أمسك الصورة بين يديه : كان ينظر اليها ويقول ، وهو ما يزال يقبلها ، بصوت العاجز الذي كانه : « مسكينة امي » . ولكنه انما كان يرثي نفسه كذلك . كانت قد دفنت في المقبرة القبيحة التي كان مرسو يعرفها جيداً من الطرف الآخر في المدينة .

وأراد ان يذهب ، فقال وهو يتعجب الكلام لكي يفهم :

- يجب - ان - لا - تبقى هكذا .

قال الآخر بمشقة : « ليس لدي عمل بعد » ، وقال بصوت متقطع وهو يمد الصورة : « كنت أحبها » ، وترجم مرسو : « كانت تحبني »

- « لقد ماتت » وفهم مرسو : « أنني وحيد » .

- كنت قد صنعت لها هذا البرميل الصغير ليعيدها .

على المدفأة ، كان هناك برميل صغير من الخشب المدهون مزين بالدوائر النحاسية وحنفية لماعة . وترك مرسو كتف كردونا الذي استرخى على الوسائد القذرة . ومن تحت السرير انبعث تأوه عميق ورائحة منفرة . وخرج الكلب على مهل ، وهو يحوف كليتيه . ووضع على ركبتي مرسو رأسه ذا الأذنين الطويلتين والعينين المذهبتين . كان مرسو ينظر الى البرميل الصغير . وفي الغرفة القذرة حيث كان هذا الرجل يتنفس بجهد ، وحرارة الكلب تحت أصابعه ، كان يغمض عينيه على اليأس الذي كان ، لأول مرة منذ زمن بعيد ، يتصاعد فيه كبحر . أمام الشقاء والوحدة ، كان قلبه اليوم يقول : « لا » وفي الحزن الكبير الذي كان يلاؤه ، كان مرسو يحس جيداً ان تمرده كان الشيء الوحيد الحقيقي في نفسه ، وان كل ما تبقى كان بؤساً وبجامة . وكان الشارع الذي كان

البارحة يعيش تحت نوافذه ما يزال يمتليء بأصواته . وتصاعدت ، في الحداثات تحت السطیحة ، رائحة اعشاب . قدّم مرسو لكردوناً لفافة ، فدخن كلاهما من دون ان يتكلمها . ومرت آخر الحافلات ، ومرت معها الذكريات التي مسا تزال حية للرجال والاضواء . ونام كرددوناً ثم ما لبث ان شخر أنفه المليء بالدموع . وكان الكلب الكوّر عند قدمي مرسو يتحرك احياناً ويثن تحت احلامه . وعند كل حركة ، كانت رائحته تصعد نحو مرسو . كان مرسو مستنداً الى الحائط وكان يحاول ان يضغط في قلبه ترمد الحياة . أخذ القنديل يدخن ، ويسود ، واخيراً انطفأ باعثاً رائحة كاز كريهة .

كان مرسو يهوّم ، واستيقظ وعيناه ممدقتان على زجاجة الخمر . ونهض في جهد كبير . وذهب نحو نافذة داخلية وتجهّد امامها . ومن اعماق الليل ، كانت تصعد نحوه نداءات والوان من الصمت . وعند حدود العالم الذي كان يغفو هنا ، تصاعد طويلاً نداء مركب يدعو الناس الى الرحيل والى بداءات جديدة .

وفي اليوم التالي ، كان مرسو يقتل زغرو . ويعود الى منزله وينام عصر يوم بأكمله ، ويستيقظ محموماً . وعند المساء استدعى طبيب الحي ، وهو ما يزال مستلقياً ، فأبلغه بأنه مصاب بنزلة وافدة . وأتى موظف من مكتبه حين علم بأخباره حاملاً معه طلبه للاجازة . وبعد أيام ، كان كل شيء قد دبّر . محضر الموت والتحقيق . وكان كل شيء يبرر فعل زغرو . وجاءت مارت لترى مرسو ، وقالت وهي تنهّد : « هناك أيام يريد فيها الانسان ان يكون محله . ولكن هناك مرات ، يحتاج فيها الانسان الى مزيد من الشجاعة ليعيش اكثر مما يحتاج لينتحر » . وبعد اسبوع كان مرسو يبجر الى

مرسيليا . كان ذاهباً ، بالنسبة للجميع ، ليرتاح في فرنسا . ومن ليون ، تلقت مارت رسالة قطيعة عانت منها كبرياؤها . وفي الوقت نفسه ، كان يعلن لها ان وظيفة استثنائية كانت قد عرضت عليه في اوروبا الوسطى . وكتبت له مارت رسالة عن ألمها وضمتها في شباك البريد . ولم تصل هذه الرسالة قط لمرسو ، الذي أصيب ، في اليوم التالي لوصوله الى ليون ، بنوبة حمى عنيفة وقفز الى قطار متوجه الى براغ . ومع ذلك ، فقد كانت مارت تخبره انهم ، بعد عدة ايام من عرض الجثة ، كانوا قد دفنوا زغرو وأنهم كانوا بحاجة الى كثير من الوسائد لكي يسندوا جذعه في النعش .

## القِسمُ الثَّاني

الموت الواعي

## الفصل الأول



قال الرجل بالألمانية :

— أريد غرفة .

كان البواب الجالس امام لوحة محملة بالمفاتيح مفصلاً عن البهو بطاولة عريضة .  
وقد تفحص الشخص الذي دخل الساعة ، ومعطفه المشمع الرمادي ملقى على كتفيه ويتحدث وهو يدير رأسه .

— بالطبع ، أيها السيد ، الليلة ؟

— لا . لا أدري .

— عندنا غرف بثمانية عشر كورونا وخمسة وعشرين وثلثين .

كان مرسو ينظر إلى شارع براغ الصغير الذي كان يرى من خلال باب الفندق الزجاجي ، كانت يده في جيبه مكشوف الرأس تحت شعره المشعث ، وعلى بعد خطوات ، كان يسمع صرير الحافلات التي كانت تهبط جادة ويتسلسل .

— أية غرفة ترغب يا سيدي ؟

قال مرسو ، ونظراته ما تزال مسمرة على الباب الزجاجي :

— لا فرق .

فأخذ البواب مفتاحاً من على اللوحة وقدمتها لمرسو .

قال : — الغرفة رقم ١٢ .

وبدا على مرسو انه يستيقظ .

— كم أجرتها ، هذه الغرفة ؟

- ثلاثون كوروناً .

- انها أغلى مما أستطيع . أريد غرفة بثمانية عشر كوروناً .

وأخذ الرجل مفتاحاً جديداً، من دون ان ينبس بكلمة، وأشار إلى النجمة النحاسية التي كان المفتاح يتدلى منها : الغرفة رقم ٣٤ .

حين جلس مرسو في غرفته ، خلع سارته ، وشد قليلاً ربطة عنقه ، من دون ان يفكها، وشمر أكام قميصه بطريقة آلية . واقترب من المرأة فوق المفصلة ، للقاء وجه ذي ملامح مشدودة ، مسمرة في الاماكن التي لم تكن تسودها ذقن نمت منذ بضعة أيام . وكان شعره المشعث من سباق الترام ، يتهدل متناثراً على جبينه حتى تلتصق عميقتين بين الحاجبين كانتا تضيفان على نظره نوعاً من التعبير الجاد الحنون استلقت نظره بالذات . وعندها فقط فكر في أن ينظر حوله إلى الغرفة الحفيرة التي كانت تشكل ثروته الوحيدة والتي لم يكن يرى فيها وراءها أي شيء على الإطلاق . وعلى سجادة قدرة ذات رسوم ازهار ضخمة صفراء على أرضية رمادية ، كانت جغرافية كاملة من القذارة ترسم عوالم لزجة من البؤس . وخلف المشمع الضخم ، كانت زوايا دهنية وموحلة . وكان المعكاس مكسوراً فكانت ترى منه أدوات التماس النحاسية . وفوق سرير ذي صفائح نحاسية ، كان خيط قد ورنشه الدهن وجفت عليه بقايا ذباب قديمة ، تتدلى منه لمبة من دون كمة كانت تلزق بالأصابع . ولاحظ مرسو الشراشف التي كانت نظيفة . وأخرج أدوات زينته من الحقيبة ونظمها واحدة فواحدة على المفصلة . ثم تأهب ليغسل يديه ، ولكنه أقفل الحقيبة التي لم يكدها يفتحها ، ثم ذهب ليفتح نافذة بلا ستائر . كانت تطل على فناء خلفي فيه حوض غسيل وعلى جدر مثقوبة بنوافذ صغيرة على إحداها كان غسيل يحف . وتمدد مرسو وسرعان ما غفا . واستيقظ مبتلاً بالعرق ، مختل الهندام ، ودار لحظة في غرفته ، ثم أشعل سيكارة وجلس ، فارغ الرأس ، ونظر إلى ثنيات سرواله المدعوك . وفي فمه كانت تتمزج مرارة النوم والسيكارة . ونظر إلى غرفته مرة أخرى وهو يحسك جنبه تحت

قيمه، وأحسن بعذوبة مريعة تتصاعد إلى فمه أمام هذا القدر الهائل من الاستسلام والوحدة. وكان يكفيه ان يحس نفسه في هذه الغرفة بعيداً إلى هذا القدر عن كل شيء وحتى عن حمائه، ويتحقق بهذا الوضوح ما في اعماق أكثر الحيوانات تنظيماً من عبث ويؤس، حين ينتصب امامه الوجه المتخجل الخفي لنوع من الحرية يُولد من الملتبس والمشبوه. وحوله كانت ساعات واهنة وليتة، وكانت الزمن كله يبقبى كأنه الوحل.

دُق الباب بعنف، فاضطرب مرسو، وتذكر أنه سبق له ان أوقف بضربات شبيهة بهذه. وفتح فوجد نفسه أمام عجوز مشقر الوبر، مسحوق تحت حقيقتي مرسو اللتين بدا عليه ضخمتين. كان يختنق من الغضب، وكانت أسنانه المفرقة تخرج من خلالها سيلاً من الكلام المليء بالشتائم والاحتجاجات. وإذا ذاك تذكر مرسو القبضة المكسورة التي كانت تجعل كبرى الحقيقتين متعبة إلى هذا الحد بحملها. واراد ان يعتذر، ولكنه لم يسدر كيف يقول انه لم يكن يعلم ان الجمال كان عجوزاً إلى هذه الدرجة. ولكن العجوز القصير قاطعه:

— أربعة عشر كوروناً.

وتعجب مرسو: من أجل يوم في المستودع؟

وفهم عندئذ من الشروح الطويلة التي قدمت له ان العجوز كان قد أستقل سيارة أجرة، ولكنه لم يجرؤ على القول انه كان بإمكانه ان يستأجر سيارة بنفسه في هذه الحالة، ودفع بدافع من الملل. وحين أغلق الباب أحس مرسو بدموع لا يمكن تفسيرها تملأ صدره. ودقت ساعة قريبة جداً الرابعة. كان قد نام ساعتين. كان يدرك ذلك، ولم يكن مفصلاً عن الشارع الا بالبيت الذي كان يواجهه، وكان يحس بزخم الحياة الصامتة السرية التي تسيل منه. من الأفضل ان يخرج. وغسل مرسو يديه طويلاً جداً، ولكي يبرد أظافره، عاد فجلس على حافة السرير وحرك بانتظام المبرد، وصفرت اثنتان أو ثلاث صفارات في

الساحة بعنف شديد جعل مرسو يعود إلى النافذة. وإذا ذاك رأى تحت البيت  
مرا مقبياً يؤدي إلى الشارع. كان ذلك يتم كما لو ان جميع أصوات الشارع ،  
الحياة المجهولة كلها للناحية الأخرى من البيوت ، ضجيج الرجال الذين يملكون  
عنواناً وعائلة واختلافات مع عم ، واطعمة مفضلة على المائدة ومرضاً مزمناً ،  
بالإضافة إلى ازدحام الناس كالنمل والذين كانت لكل واحد منهم شخصيته - كان ذلك كله  
كضربات كبيرة مفصولة إلى الأبد عن قلب الحشد الهائل يتسلل من العمر  
ويتصاعد على طول الملعب كله لينفجر كفقاع في غرفة مرسو. وكان يكفي ان  
يحس نفسه نقيذا إلى هذا الحد ، منتبهاً إلى هذا الحد لكل اشارة من العالم حتى  
يدرك الشق العميق الذي كان يفتحه على الحياة . وأشعل سيكارة أخرى ولبس  
بعصبية . وأحس وهو يزرر أزرار سترته بالدخان يخز جفونه . ورجع إلى  
المغسلة يمسح عينيه واراد ان يسرح شعره . ولكن مشطه كان قد اختفى . وكان  
النوم قد شعث شعره ، وعبثاً حاول ان يعيد تصفيفه . وهبط كما هو ، شعره  
متهدل على وجهه ، ومنكوش من الخلف . كان يحس بمزيد من الازلال ؛ وإذا  
أصبح في الشارع ، قام بدورة حول الفندق لينفذ امام المر الصغير الذي كان قد  
لاحظه . كان المر يفتح على جادة المختارية القديمة . وفي المساء الثقيل بعض الشيء  
الذي كان يهبط على براغ ، كانت قمم قباب المختارية الغوطية وقمم كنيسة  
تينسكي القديمة تتقاطع سوداء . وكان جمع غفير يجري تحت الشوارع الصغيرة  
المقنطرة . وكان مرسو ، امام كل امرأة ، يترصد النظر الذي كان يسمح له بان  
يعتقد نفسه قادراً بعد على ان يلعب لعبة الحياة الرهيفة الخنون . ولكن  
الاشخاص الاصحاء يملكون طريقة فنية طبيعية تتجنب النظرات المحومة . كان  
غير حليق الذقن ، مشعثاً ، في عينه تعبير حيوان قلق ، سرواله مدعوك كقبة  
قميصه . كان قد فقد هذا التفه العجيب الذي تضيفه بذلة مفصلة تفصيلاً جيداً  
أو مقود سيارة . كان الضوء يصبح قاسياً والنهار يتباطأ على ذهب القباب  
الباروكية التي كانت ترى في قلب الساحة . توجه نحو احدها ، ودخل

الكنيسة ، واذ أسرته الرائحة القديمة ، فقد جلس على مقعد . كانت القبة معتمة تعتيماً تاماً ، ولكن ذهب تيجان العواميد كان يصبّ ماء مذهّباً مبرّياً كان يسيل في اضلاع العواميد حتى وجه الملائكة المنفتح والمقديسين المقهّقين . وكانت ثمة عذوبة ، اجل ، لقد كانت هناك عذوبة ولكنها كانت مرة الى حد جعل مرسو يرتد الى العتبة ، وحين انتصب واقفاً على الدرجات ، تنفس هواء الليل الذي غدا الآن اكثر رطوبة والذي كان ينغمر فيه . وبعد لحظة اخرى ، رأى أول نجمة تتقد ، نقية معراة بين قمم قبب كنيسة نينسكي .

وأخذ يبحث عن مطعم رخيص . وغرق في شوارع أشد ظلاماً وأقل مارة . وبالرغم من ان المطر لم يسقط في النهار ، فإن الأرض كانت مبتلة ، وكان على مرسو ان يتجنب البرك السوداء بين البلاطات النادرة . ثم أخذ مطر خفيف ناعم يطل . ولم تكن الشوارع المأهولة بعيدة من غير شك ، لأن أصوات منادي الصحف كانت 'تسمع الى هنا وهم ينادون ' النارودنا بوليتيكا . وكان هو ، اثناء ذلك ، يطوف بالمكان . ثم توقف فجأة . كانت رائحة غريبة تتصاعد من اعماق الليل . كانت واخزة ، حامزة ، وكانت توقظ فيه جميع امكانيات التلق . كان يحسها على لسانه ، في اعماق انفه وعلى عينيه . كانت بعيدة ، ، ثم مالت على زاوية الشارع بين السماء المسودة والبلاطات الدهنية والدبكة ، كأنه سحر رديء ليالي براغ . تقدم نحوها ، وكانت تغدو ، كلما تقدم ، اكثر حقيقة . كانت تجتاحه بأكمله وكانت تحز عينيه بالدموع وتحلفه لا حول له ولا قوة . وعلى زاوية شارع ، أدرك السبب ، كانت امرأة عجوز تبيع خياراً مكبوساً بالخل وكانت رائحته هي التي امسكت بمرسو . وتوقف مارتاً ، واشترى خياراً لفنتها له المعجوز بورقة . خطأ بضع خطوات ، ثم فتح لفنته أمام مرسو ، وقضم ببله أسنانه الحيارة التي كان لمحاها الممزق السائل تفوح منه رائحة أشد .

كان مرسو منزعجاً ، فاستند على ركيزة وتنفس لحظة طويلة كل ما كان يقدمه

له العالم من غريب ومتوحد في هذه الدقيقة. ثم رحل ودخل، من غير ان يفكر، الى مطعم كان ينبعث منه لحن أكورديون. ونزل بضع درجات، وتوقف في منتصف السلم. ووجد نفسه في قبو صغير معتم كفاية ومليء بالاضواء الحمراء. لا شك ان هيئته كانت غريبة لأن الاكورديون بدأ ينغم بخفوت اكثر، ولأن الاحاديث توقفت والزبائن التفتوا نحوه. في الزاوية كانت فتيات كلن وشفاهن مكتنزة. وكان زبائن آخرون يشربون جعة التشيكوسلوفاكيا السمراء العذبة. وكثيرون كانوا يدخنون من غير ان يأكلوا. واحتل مرسو طاولة طويلة بما فيه الكفاية كان يشغلها رجل واحد. كان الرجل طويلا ونجيلا، اصفر الزغب، وكان مكوّمًا على كرسيه، ويداه في جيبه، يزم شفتيه المشققتين حول طرف عود ثقاب كان متضخما من الريق، وكان يمصه بصوت كريحه او كان يمرره من زاوية الى اخرى من فمه. حين جلس مرسو، لم يكن الرجل يتحرك، فاستند الى الحائط، ووجهه عود الثقاب ناحية القادم وثنى عينيه خفية. في هذه اللحظة رأى مرسو نجمة حمراء على عروته.

واكل مرسو قليلا وبسرعة. لم يكن جائعا. وكان الاكورديون ينغم الآن بشكل اوضح. وكان الرجل الذي يحركه يمدق بالقادم الجديد. وفي محاولتين متكررتين، حمل هذا الأخير عينيه بالتحدي وحاول ان يثبت نظره. ولكن حمّاه كانت قد أوهنته. كان الرجل ما يزال ينظر اليه. وفجأة، انفجرت احدى الفتيات بالضحك، فمض الرجل ذو النجمة الحمراء كبريته بقوة وكانت تنفتح عليها فقاعة صغيرة من اللعاب. اما الموسيقى، فقد اوقفت الرقص الصاخب الذي كان يعزف نغمته، من دون ان يتوقف عن النظر الى مرسو لياشر لحنًا بطيئًا مصفراً بكل غبار القرون. في هذه اللحظة فتح الباب امام زبون جديد. لم يره مرسو، على انه، من الفتحة، تسلفت بخفة رائحة الخل والخيار. فملأت دفعة واحدة القبو الصغير الممتم، مختلطة بلحن الاكورديون السحري، مضخمة فقاعة اللعاب على كبريتة الرجل، بحيلة الاحاديث فجأة

أكثر تعبيراً ، كما لو أنه من حدود الليل الذي كان يغفو على براغ كان كل معنى العالم القديم الخبيث والمؤلم يأتي ليلوذ بحرارة هذه القاعة وهؤلاء الرجال . وأحس مرسو الذي كان يأكل مربي مسكراً أكثر مما ينبغي ، والذي كان مقدوقاً فجأة حتى نهاية ذاته ، أحس أن الصدع الذي كان يحمله في نفسه يتقصف ويقتض على نحو أكثر رجابة على القلق والحمى . ونهض فجأة ، ونادى النادل ، ولم يفهم شيئاً من شروحه ، ودفع بسخاء وهو يلاحظ من جديد نظرة الموسيقى المنفتحة والمحدقة ابداً فيه . وبلغ الباب . وتجاوز الرجل فلاحظ أنه كان ما يزال يتأمل الطاولة التي كان قد غادرها . وأدرك آنذاك أنه قد كان أعمى ، وارتقى الدرجات ، واذ فتح الباب ، ووجد نفسه كله ملقى في الرائحة الحامزة ابداً ، تقدم في الطرقات القصيرة نحو اعماق الليل .

كانت النجوم تتألق فوق المنازل . لا بد أنه كان بالقرب من النهر الذي كان يسمع خريره الأصم القوي . وإمام شبكة في حائط ، سميكة مملوءة بحروف عبرية ، أدرك أنه كان في الحي اليهودي . فوق الحائط كانت أغصان صفصاف ذات رائحة مسكرة تنساقط من جديد . ومن خلال الشبكة ، كان المرء يلاحظ أحجاراً ضخمة سمراء مدفونة بين الأعشاب . كانت تلك مقبرة براغ اليهودية القديمة ، وعلى بعد خطوات من هنا ، وجد مرسو نفسه من جديد ، راكضاً ، من الساحة القديمة لدار البلدية . وإمام فندقه ، اضطر إلى أن يستند إلى حائط ، وتقيأ بجهد . وبكل الوضوح الذي يمنحه الضعف الأقصى وجد غرفته بلا أدنى خطأ ، فاستلقى ، وسرعان ما نام .

وفي اليوم التالي استيقظ على صراخ بائعي الصحف . كان الجو ما يزال ثقيلًا ، ولكن كان بالامكان التنبؤ بالشمس وراء الغيوم . وكان مرسو ، بالرغم من ضعفه الخفيف ، يحس بالتحسن . ولكنه كان يفكر بطول اليوم الذي يتقدم . أن يعيش هكذا بحضور ذاته ، معناه أن يتخذ الوقت امتداده الأقصى ، فتبدو

له كل ساعة من ساعات النهار وكأنها تضم عالماً . قبل كل شيء ، عليه ان يتجنب ازمات كالتي حدثت البارحة . ومن الافضل ان يزور المدينة بانتظام . جلس على طاولته ، بنامته ، ووضع لنفسه برنامج عمل منظم يشغل كل يوم من أيامه لمدة اسبوع . ولم ينس شيئاً . الاديرة والكنائس الباروكية ، المتاحف والاحياء القديمة . ثم أصلح هندامه ، ولاحظ اذ ذاك انه كان قد نسي ان يشترى مشطاً فزل ، كالبارحة ، مشعناً وصامتاً امام البواب الذي لاحظ في وضع النهار شعره المتقنذ ، وهيبته المذهولة وسرته التي كان ينقصها الزر الثاني . وعند خروجه من الفندق ، تأثر بلحن أكورديون طفولي وحنون . كان اعمى البارحة ، في زاوية الجادة القديمة ، مقرفصاً على كعبيه ، يحرك آلتة بالتمير نفسه ، الفارغ المتسم كأنما هو محور ، من ذاته ، ومنصور كله في حركة حياة كانت تتجاوزه . وعند زاوية الشارع ، التفت مرسو ووجد رائحة الحيار ، ومعها ، قلقة .

كان هذا اليوم ما كان ينبغي ان تكونه الأيام التي تلتته . كان مرسو يستيقظ متأخراً ، فيزور أديرة وكنائس ، وكان يبحث عن ملاذ في رائحتها القبوية والبخورية ، لكنه وحين يعود الى النهار ، يلتقي خوفه الخفي مع بائعي الحيار الذين كانوا منتشرين في جميع زوايا الشارع . ومن خلال هذه الرائحة كان يرى المتاحف ويفهم غزارة وسر العبقرية الباروكية التي كانت تملأ براغ بذهبها وعظمتها : وكانت الاشعة المذهبة التي كانت تلعب برفق على المذابح في جوف الظل تبدو له مأخوذة من الساء النحاسية المكونة من ضباب وشمس والمرتفعة غالباً فوق براغ . وكانت خردوات الحزونيات والدويرات ، والديكور المعقد الذي يمكن ان نقول إنه من الورق المذهب ، كان مثيراً في شبه بمداود الطفل التي تقام في الميلاد ، وكان مرسو يحس في ذلك الضخامة والغرابة والتناسق الباروكي ، كأنه رومنسية ، محمومة ، طفولية وطنانة يدافع بها



الانسان عن نفسه ضد شياطينه الخاصة . والاله الذي كان يُعبد هنا ، هو  
الاله الذي يخشى ويبجل ، لا الاله الذي يضحك مع الانسان امام الاعيب البحر  
والشمس الودّية . وحين خرج مرسو من رائحة الغبار والعدم التي كانت تخيم  
تحت القباب المعتمة ، كان يجد نفسه بلا وطن . وفي كل مساء ، كان يذهب الى  
اديرة النساك التشيكيين ، في غرب المدينة ، وفي حديقة الدير كانت الساعات تتطاير  
مع الحمام . وكانت الأجراس تقرر بعذوبة على العشب . ولكن كانت حتماء  
هي التي تتحدث ايضا اليه . على ان الوقت كان يمر كذلك . ولكن تلك كانت  
الساعة التي كانت فيها الكنائس والآثار مغلقة والمطاعم غير مفتوحة  
بعد . وهنا كان الخطر . كان مرسو يتنزّه على ضفاف فلتافا المليئة بالحدائق  
والجوقات الموسيقية في النهار المنتهي . وكانت مراكب صغيرة تصعد من جديد  
النهر من سد الى آخر . وكان مرسو يصعد معها ، وكان يترك الضجيج المصم  
وغليان هويس القناة ، ويستعيد شيئاً فشيئاً سلام المساء وسكونه ، ثم يمشي  
من جديد للملاقاه هدير كان يتضخم حتى الضجيج . وحين وصل الى السد  
الجديد ، ظل ينظر الى القوارب الصغيرة الملونة وهي تحاول عبثاً ان تجتاز  
السد من غير ان تنقلب ، حتى تمكن احدها من ان يجتاز النقطة الخطرة ، فعلا  
الصياح على صوت المياه . وكان هذا الماء المندفع والمشحون بالأصوات والانغام  
وروائع الحدائق ، المليء بالأضواء النحاسية لسهاء المقيب وبالظلال الملتوية  
والمتنافرة لتماثيل جسر شارل ، كان هذا الماء يحمل لمرسو الوعي المؤلم الحاد  
لوحدة بلا حاسة لم يكن للحب بعد اي مكان فيها . وحين توقف امام عطر المياه  
والاوراق الذي كان يتصاعد اليه ، منقبض الحلق ، كان يتخيل دموعاً لم  
تكن لتأتي . وكان يكفيه مجرد صديق او ذراعان مفتوحتان . ولكن  
الدموع كانت تتوقف عند حدود عالم بلا حنو ، كان غارقاً فيه . وفي مرات  
أخرى حين كان يجتاز جسر شارل ، في هذه الساعة من المساء ايضا ، كان

يتنزه في حي "هردستين" ، فوق النهر ، المقفر الصامت على بضع خطوات من أكثر أحياء المدينة ازدحاماً . كان يتيه بين هذه القصور الفخمة ، ومحاذي المتنزهات الواسعة المشجرة ، المبلطة على طول الحواجز المنحوتة حول الكاتدرائية . وبين جدران القصور العالية كانت اقدامه تصدي في السكون . وكان صوت أصم يتصاعد من المدينة اليه . ولم يكن هناك بائع خیار في هذا الحي ، ولكنه أحس بشيء مقبض في هذا الصمت وهذه العظمة ، حتى ان مرسو كان ينتهي دائماً بأن يعود فيهب نحو الرائحة او النغم اللذين كانا يكونان من الآن فصاعداً كل وطنه . كان يأكل في المطعم الذي كان قد اكتشفه والذي ظلّ ، بالنسبة له على الأقل ، مألوفاً . وكان مكانه أمام الرجل ذي النجمة الحمراء والذي كانت يأتي فقط مساء . فشرّب كأس جمعة . وعلك كبريته . وعند العشاء ، ايضاً ، كان الأعشى يعزف ، وكان مرسو يأكل بسرعة ويدفع ويعود الى فندقه نحو نوم طفل محموم لم يفتحه ليلة واحدة .

كل يوم كان مرسو يفكر في الذهاب ، وكل يوم كان يزداد غوصاً في التخلي ، فتضعف ارادته للسعادة في ان تقوده . لقد مضى عليه أربعة أيام في براغ لم يكن قد اشترى فيها بعد المشط الذي كان يحس غيابيه كل صباح . على انسه كان لديه الشعور المبهم بنقص ما ، وهذا ما كان ينتظره بغموض . وذات مساء ، كان يتوجه نحو مطعمه في الطريق الصغيرة حيث التقى بالرائحة في المساء الأول . والحق انه كان قد بدأ يحسها قادمة عندما أوقفه شيء ما ، قبل المطعم بقليل ، على الرصيف المقابل وجعله يقترب . كان ثمة رجل ممدد على الرصيف مشتبك الذراعين ورأسه مائل على خده اليسر . وكان ثلاثة اشخاص او أربعة يستندون الى حائط كما لو انهم ينتظرون شيئاً ما ، على هدوئهم الكبير . وكان أحدهم يدخن . وكان الآخرون يتحدثون بصوت خافت . ولكن رجلاً مشتمراً الاكمام ، وسترته على ذارعه ، ولبديته مرتدة الى الخلف ، يومئى حول الجسد رقصة وحشية ، نوعاً من رقصة هندية

موقّعة ومرهقة . وفوق ، كان نور مصباح بعيد خافت جداً يتألف مع الضوء الأصم الذي كان ينبعث من المقهى على بعد خطوات . هذا الرجل الراقص بلا توقف ، وهذا الجسد ذو الذراعين المتشابكتين ، وهؤلاء المتفرجون الهادئون الى هذا الحد ، وهذا التناقض المضحك ، وهذا الصمت الجديد ، كان في ذلك كله لحظة توازن مضى مكوّنة اخيراً من التأمل والبراءة بين الاعيب الظل والضوء المطبقة قليلاً ، هذه اللحظة التي كان يبدو لمرسو ان كل شيء فيها يهوي في الجنون . وازداد قريباً . كان رأس القليل يسبح في الدم . وعلى الجرح ، كان الرأس قد انحنى ، وكان الآن يستكين في هذه الزاوية البعيدة من براغ ، بين الاشعة النادرة على البلاط الدهني ، والانزلاقات الطويلة المبتلة للسيارات التي كانت تمر على بعد خطوات من هنا ، والعودة المتباعدة النائية للحافلات الصاخبة المتباعدة . في هذه الزاوية ، كان الموت يتكشف عذّباً وملحاً . وكان نداؤه بالذات ونفحه الرطب هو ما كان يحسه مرسو في اللحظة التي مضى فيها بخطى كبيرة من غير ان يلوي . وفجأة ، قدمت الرائحة لتهمز ، وكان قد نسيها ، فدخل الى المطعم وجلس على طاولته . كان الرجل هنا ، ولكن من دون كبريته . وخيل لمرسو انه كان يرى شيئاً من الشرود في نظراته . وطرده الفكرة السخيفة ، التي كانت تمثل له . ولكن كل شيء كان يدور في رأسه . وقبل ان يطلب أي شيء ، هرب فجأة ، وركض حتى فندقه وارتمى على سريره . كانت لذعة حارقة تحرق صدغه . كان فارغ القلب منقبض البطن وكان تمرداً ينفجر . وكانت صور من حياته تضخم عينيه . شيء ما في داخله كان يزعق وراء حركات نساء وأذرع تفتتح وشفاه دافئة . ومن اعماق ليالي براغ المؤلمة ، وسط روائح الحل والانغام الطفولية ، كان يتصاعد اليه الوجه القلق للعالم الباروكي القديم الذي كان قد صاحب حمّاه . وجلس على سريره ، وهو يتنفس بجهد ، ويعيون اعشى وحركات

T لة . وكان درج المنضدة مفتوحاً ومكسواً بصحيفة انكليزية قرأ فيها مقالاً كاملاً . ثم عاد فارتمى على سريريه . كان رأس الرجل منحنيّاً على الجرح ، وفي هذا الجرح كان بالامكان دسّ أصابع . نظر الى يديه والى أصابعه ، فانبعثت من قلبه رغبات طفل . وكانت حماسة حادة وخفية تتفاقم فيه مع الدموع ، فإذا هو حنين الى مدن مليئة بالشمس والنساء مع امسيات خضراء تضمّد الجروح . وانفجرت الدموع . وفي نفسه ، كانت بحيرة كبيرة من الوحدة والصمت تتسع ، وعليها كان يركض لحن خلاصه الحزين .

## الفصل الثاني

في القطار الذي كان يقوده نحو الشمال ، كان مرسو يتأمل يديه . كانت السماء تنبئ بمصافقة كان جري الترام يثير فيها موجة من الغيوم المنخفضة الثقيلة . وكان مرسو وحده في هذه الحافلة المفرطة السخونة . كان قد ذهب مسرعاً في الليل ، وإذ أصبح الآن وحيداً أمام الصبيحة القاتمة ، كان يترك لكل عدوية هذا المنظر البوهيمي ان تتسلل إلى نفسه ، حيث كان انتظار المطربين الصفصافات الحريرية العالية ومداخن المعامل البعيدة يخلف ما يشبه الرغبة في الدموع . وكان ينظر إلى اللاتئة البيضاء بمباراتها الثلاث: « من الخطر الإنحناء إلى الخارج » . ومن هنا ، كانت يدها ، أشبه بحيوانين وحشين نابضين على ركبتيه ، تناديان نظراته . احدهما ، اليسرى ، كانت طويلة لدنة ، والأخرى كثيرة العقد وعاضلة . كان يعرفها ، وكان يتعرف إليها ثانية ، وفي الوقت نفسه كان يشعر بهما متبايزتين ، كأنهما جديرتان بأعمال لم يكن لارادته أي شأن فيها . وقد أقبلت احدهما تستند إلى جبينه لتقيم حاجزاً للحصى التي كانت تطرق صدغيه . وانزلت الأخرى على طول سترته وانسلت إلى جبينه لتأخذ لفافة ، ولكنها ما لبثت ان أرتدت إذ وعى هذه الرغبة في التقيؤ التي كانت تخلفه واهناً بلا قوة . وإذ عادتا إلى ركبتيه ، أستسلمت يدها ، وأخذت راحتاه شكل كأس . فقدّمتا لمرسو وجه حياته وقد أرتدت إلى اللامبالاة ووهبت نفسها لكل من كان يريد أخذها .

وسافر لمدة يومين . ولكنه في هذه المرة . لم تكن غريزة الهرب هي التي تدفعه . كانت رتابة هذا السباق نفسها تغمره . وكانت هذه الحافلة التي تقوده

خلال نصف أوروبا تتركه بين عالمين . لقد أستقلتها وهو على وشك ان يغادرها . كانت تسجنه خارج حياة كان يريد ان يحو حتى ذكرها لسكي تقوده إلى عتبة عالم جديد تصبح فيه الرغبة ملكة . ولم يضجر مرسو مرة واحدة . كان يقبع في زاويته ، يكاد لا يُزعجه شيء . وكان ينظر إلى يديه ، ثم إلى المنظر ، ويفكر . وراق له ان يمدّ رحلته حتى برسلو ، لا يقوم إلا يجهد يسير عند الجرك ليبدل التذكرة . كان يريد ان يستمر بعد في مواجهة حريته . كان تمباً ، ولم يكن يحس في نفسه القدرة على التحرك . كان يتلقى في ذاته أصغر أجزاء قوته وادق آماله ، وكان يشدّها ويعيد جمعها ، وفي ذاته كان يعيد صنع ذاته ، ويصنع مصيره الآتي في آن واحد . كان يحب هذه الليالي الطويلة التي ينسحب فيها القطار على السكك الزلقة ، ومروره العاصف في المحطات الصغيرة حيث الساعة وحدها مضيئة ، وانكباحه المفاجيء قبل أضواء المحطات الكبيرة هذا الوكر الذي ما يكاد يلاحظ حتى يكون قد بدأ يبتلع القطار ويصبّ في حافلاته ذهبه الوافر وضوءه وحرارته . وكانت مطرقات تزن على الدواليب ، وكانت القاطرة تمحجم بكل بخارها ، وكانت حركة العامل الآلية ، وهويخفض قرص المرور الأحمر ، تقذف مرسو في السباق الجنون للترام حيث كان صحوه وقلقه وحدهما يسهران . ومن جديد كان تلاعب الظلال والأضواء المتشابك في الحافلة ، وغطاء السواد والذهب . درس ، بروتزن ، غرليتز ، ليفنتز ، وكان طوال الليل وحيداً بمواجهة ذاته ، مالمّا كل وقته ليشكل حركات حياة قادمة ، وكان الصراع الصبور مع الفكرة التي تهرب عند منعطف محطة ، ثم تستسلم فيقبض عليها وتطارده ، وتلتحق بمحصلاتها ثم تهرب ثانية أمام رقص الأسلاك الملتمة بالمطر والأضواء . كان مرسو يبحث عن الكلمة أو الجملة التي ستعبر عن أمل قلبه والتي سينتهي فيها قلقه . وفي حالة الضعف التي كان يعانيها ، كان بحاجة إلى صيغ . وكان الليل والنهار ينقضيان في هذا الصراع العنيد مع الفعل والصورة اللذين سيحددان بعد الآن لون نظرتة كله أمام الحياة ، والحلم الجنون

أو الشقي الذي يكونه عن مستقبله . كان يغمض عينيه . إن المرء بحاجة إلى وقت لكي يعيش ، وككل عمل فني ، تتطلب الحياة من المرء ان يفكر بها . وكان مرسو يفكر بحياته وينتزه وعيه المضطرب وارادته للسعادة في حافلة كانت في تلك الأيام ، بالنسبة له في اوروبا ، شبيهة باحدى تلك الحجلات التي يتعلم فيها الانسان ان يعرف الانسان عبثاً ما يتجاوزه .

وفي صباح اليوم التالي ، وبالرغم من البلد المنبسط ، فان القطار يتباطأ بشكل ملحوظ . كان على بعد ساعات من برسلو ، وكان النهار يتفتح على سهل سيليزي الطويل ، حيث لا شجرة ، اللزج من الوحل ، تحت سماء يغطيها ويلاها المطر . وعلى مد البصر وعلى مسافات منتظمة ، كانت طيور كبيرة سوداء ذات أجنحة براقة تطير أمراباً على ارتفاع أمتار من الأرض ، عاجزة عن الارتفاع أعلى من ذلك تحت السماء الثقيلة كالبللطة . كانت تحوم دوائر في طيران بطيء وثقيل ، واحياناً كان احدها يخرج عن السرب ، فيلامس الأرض ، حتى ليختلط بها ، ويبتعد بالطيران اللزج نفسه إلى ما لا نهاية حتى يبتعد مسافة كافية البعد لكي ينفصل كنقطة سوداء في السماء المبتدئة .

وكان مرسو قد مسح يديه بخار الزجاج ، وكان ينظر بشغف ، من خلال الخطوط الطويلة التي كانت أصابعه قد تركتها على الزجاج . ومن الأرض الكدرة حتى السماء الفاقدة اللون ، كانت ترتفع في نفسه صورة لعالم جاحد كان ، لأول مرة ، يعود أخيراً إلى ذاته . وعلى هذه الأرض المعادة إلى يأس البراءة ، كان مسافراً تائماً في عالم بدائي ، يستعيد روابطه ، وبقبضة مشدودة إلى صدره ، ووجه مسحوق على الزجاج ، كان يمثل أندفاعه نحو ذاته ونحو اليقين بالعظمة التي كانت تنام في نفسه . كان يود لو ينسحق في هذا الوحل ، ويغوص في الأرض بهذا الحمام من الصلصال وينتصب على السهل الذي لا حدود له ، معطى بالوحل مشرع اليدين امام سماء الاسفنج والشحم ، كأنما هو في وجه رمز الحياة المونس



الرائع ، يؤكد تضامنه مع العالم في أشد صورته تنفيراً ، ويعلن عن نفسه شريكاً للحياة حتى في جحودها وقذارتها . وأخيراً انفجر الانفدفاع الهائل الذي كان يستبدّ به لأول مرة منذ رحيله . وسحق مرسو دموعه وشفتيه بالزجاج البارد . ومن جديد ، تغبّش الزجاج وأختفى السهل .

بعد ساعات ، كان يصل إلى برسلو . ومن بعيد بدت له المدينة كغابة من مداخن المعامل وقبب الكندراثيات . ومن قريب ، كانت مبنية من القرميسد والاحجار السوداء . وكان رجال الخوذات ذات المقدمات القصيرة يسرون على مهل . وقد تبعهم ، وأمضى الصبيحة في مقهى عمالي ، كان شاب يعزف فيه على المرمونيكا : الحاناً ذات بلادة قوية وثقيلة تريح النفس . وقرر مرسو ان يعود فيهبط نحو الجنوب ، بعد ان يكون قد اشترى مشطاً . وفي اليوم التالي ، كان في فيينا ، فنام قسماً من النهار والليل بأكمله . وعندما أستيقظ ، كانت الحمى قد سقطت كلياً . وأتخم نفسه بالبيض برشت والقشدة الطازجة عند الفطور ، ثم خرج وقلبه مُعَفَّر بعض الشيء ، في صبيحة تحرقها الشمس والمطر .

كانت فيينا مدينة منعشة . ولم يكن فيها شيء يُزار . كانت كاتدرائية القديس اتيان المفرطة الضخامة تضجّره . وقد فضلّ عليها المقاهي التي كانت تواجهها ، وفي المساء ، مرقصاً صغيراً امام ضفاف القتال . وفي النهار كانت يتنزّه على طول « الرنغ » ، وسط ترف الواجبات الجميلة والنساء الانيقات : كان يتمتع ، ردحاً من الزمن ، بهذا الديكور الخفيف المسترف الذي يفصل الانسان عن ذاته في مدينة هي أقلّ المدن طبعية في العالم . ولكن النساء كن جميلات ، وكانت الأزهار نامية باهرة في الحدائق ، وعلى « الرنغ » ، في المساء الهابط ، بين الجمع المتألق الرخي الذي كان يتنزّه ، كان مرسو يتأمل ، على قمة الانصاب ، الانطلاق المبني للخيول البحرية في المساء الأحمر . آنذاك فقط تذكر روز وكليز ، صاحبتيه . ولأول مرة منذ رحيله ، كتب رسالة . والحقيقة ان

فيض صمته هو ما كان ينسكب على الورق .

« صغيرتي » :

أكتب اليكما من فيينا . لا أدري ما ألتما اليه . أما أنا ، فإنني أكسب حياتي بالسفر . رأيت بمرارة قلب كثيراً من الأشياء الجميلة . هنا ، اخلى الجمال المكان للحضارة . وهذا مريح . انني لا أزور كنائس ولا امكنة اثرية . انني اتنزه على « الرنغ » . وحين يأتي المساء فوق المسارح والقصور الباذخة ، يلقي انطلاق الخيول الحجرية الاعشى عند المغيب الأحمر في نفسي مزيجاً قريباً من المرارة والسعادة . في الصباح أفطر بيضاً برشت وقشدة طازجة . أنهض متأخراً ، والفندق يحيطني بمجاملاته ، انني متأثر لأسلوب رؤساء خدم الفندق ومتخيم بالطعام اللذيذ ( أوه ما اطيب هذه القشدة الطازجة ! ) . يوجد هنا مناظر جميلة ونساء جميلات . ولا تنقصني إلا شمس حقيقية .

ما الذي تفعلانه ؟ تحدثا عنكما وعن الشمس الى المسكين الذي لا يمسه شيء في أي مكان والذي يظل صديقكما المخلص : باتريس مرسو .

ذلك المساء ، حين انتهى من الكتابة ، عاد الى المرقص . كان قد حجز لنفسه السهرة مع إحدى الساقيات ، هيلين ، التي كانت تعرف بعض الفرنسية وتفهم ألمانيته الرديئة . وحين خرج من المرقص في الثانية صباحاً ، أعادها الى منزلها ، وفعل الحب كأحسن ما يفعل في العالم ، ووجد نفسه في الصباح ، عارياً ، في سرير غريب ، ملتصقاً بظهر هيلين التي كان يتأمل بلا مبالاة وابتهاج رديفها الطويلين وكتفها العريضتين . وذهب من غير ان يريد إيقاظها ، ودرس ورقة في احد حذائهما . وفي اللحظة التي بلغ فيها الباب سمع من يناديه : « ولكنك يا حبيبي قد اخطأت » . فعاد نحو السرير : كان قد اخطأ بالفعل ، فقد كان يجهل العملة النمساوية ، لذلك فقد ترك ورقة بخمسمئة شلنغ بدلاً من مئة . قال وهو يتسم : « لا . إنها لك . لقد كنت لطيفة جداً » . والتعم وجه هيلين ، المنقط

بالتمش تحت الشعر الاشقر والمشعث ، بابتسامة . وفيحاة انتصبت واقفة على السرير وقبلته على الحدين . وفجرت هذه القبة ، الاولى بلاشك التي أعطته اياها من كل قلبها ، فجرت في مرسو دفعة من التأثير . فألقاها على السرير وغطاها ، ثم رجع الى الباب ونظر اليها وهو يبتسم . قال : « وداعاً » . وجحظت الاخرى بعينها فوق الغطاء المرفوع تحت الانف وتركته يمتحفي من غير ان تجد كلمة .

وبعد أيام تلقى مرسو جواباً مؤرخاً من مدينة الجزائر :

«عزيزنا باتريس .

نحن في مدينة الجزائر . ستكون صغيرتك سعيدتين جداً لرؤيتك من جديد . فاذا لم يكن ثمة ما يسكك في أي مكان ، فتعال الى الجزائر . اننا نستطيع ان ننزلك في « البيت » . اما نحن ، فسميدتان : اننا طبعاً نشكو بعض الخجل ، ولكن ذلك بالأحرى بسبب اللياقة . وان لذلك ايضاً علاقة بالاحكام المسبقة . اذا كنت مهتماً بان تكون سعيداً ، فتعال جرب ذلك هنا . فهذا أفضل من ان تكون ضابط - صف مجدد التطوع . نقدم جبهتنا لقبلاتك الأبوية .

روز ، كلير ، كاترين . »

ملاحظة - محتج كاترين على كلمة « أبوي » كاترين تسكن معنا ، وستكون ، إن اردت ذلك ، صغيرتك الثالثة .

وقرر أن يعود الى مدينة الجزائر عن طريق جنوى . وكما يحتاج آخرون الى عزلة قبل ان يتخذوا قراراتهم الخطيرة ويلعبوا اللعبة الاساسية لحياة ما ، فقد كان هو ، المسمم بالوحدة والفراغة ، بحاجة الى ان يحتمي بالصدقة والثقة وان يتدوق اماناً ظاهراً قبل ان يبدأ لعبته .

وفي القطار الذي كان يقله الى جنوى عن طريق إيطاليا الشمالية ، كان ينصت الى آلاف الاصوات التي كانت تقفي فيه نحو السعادة . وعند أول

شجرة شربين منتصبه على الأرض الطاهرة ، كان قد ارتحى . كان ما يزال يحس ضعفه وحمته . ولكن شيئاً ما في نفسه كان قد استرخى وتدد . وفيما بعد ، بقدر ما كانت الشمس تتقدم في النهار ويقرب البحر ، تحت السماء الكبيرة المتوهجة المتحفزة حيث تسيل على شجرات الزيتون المرتعشة انهار من الهواء والضوء ، كان الهوس الذي يحرك العالم يتجاوب مع حماس قلبه . وكان صوت القطار والثروة الطفولية التي كانت تحيط به في المقصورة المكتظة ، وكل ما كان يضحك ويغني حوله ، يتناغم ويصاحب نوعاً من الرقص الداخلي ألقاه ، لمدة ساعات ، جامداً في أربعة أرجاء المعمورة ثم صبه اخيراً مبتهجاً منذهلاً في جنوى المصعة التي كانت تنفجر صيحة أمام خليجها وسماؤها ، حيث كانت اللذة والكسل يتصارعان حتى المساء . كان متعطشاً للحب والمتعة والتقبل . وقد ألقته الآلهة التي كانت تحرقه ، في البحر ، في زاوية صغيرة من المرفأ ، حيث تذوق القطران والملح بمزوجين ، وأضاع أقصى مداه لقرط ما سيح . وتاه فيما بعد في الطرقات الضيقة المليئة بروائح الاحياء القديمة ، وترك الألوان تآر من أجله ، والسماء تستنفذ نفسها فوق البيوت تحت وطأة شمسها ، والقطط ترتاح بسين القذارات والصيف . ومضى الى الطريق التي تشرف على جنوى ، وترك البحر كسله المحمل بالعطر والأضواء يصعد اليه ، في انتفاخ طويل . وكان يحضن الحجر الساخن الذي كان قد جلس عليه ، وهو يغمص عينيه ، ليفتحهما على هذه المدينة التي كان زخم الحياة فيها يزجر بسدوق رديء مهيج . وفي الأيام التي تلت ، كان يحب ايضاً ان يجلس على الحاجز الذي ينحدر نحو المرفأ ، وعند الظهر كان ينظر الى الفتيات الصبيات يمررن عائدات من المكاتب الى المرفأ . كانت الفتيات ينتعلن الصنادل ، محررات النهود في اثواب زاهية خفيفة ، فكن يتركن مرسو جاف اللسان خافق القلب برغبة كان يجد فيها في آن واحد حرية وتبريراً . وفي المساء ، كانت النساء أنفسهن ، هن اللواتي كان يلتقي بهن في الطرقات ، فيتبعهن يرافقه في أحشائه الوحش الحار

الملثف بالرغبة الذي كان يتحرك بعدوبة ضارية . وخلال يومين ، تحرق في هذه الحمى اللاإنسانية . وفي اليوم الثالث غادر جنوى الى مدينة الجزائر .

وطوال الرحلة ، كان يتأمل الاعيب الماء والضوء ، في الصباح ، وفي قلب النهار وفي المساء على البحر ، فيؤلف قلبه مع دقائق السماء البطيئة ويعود الى ذاته . كان يحذر من ابتذالية بعض الشفاءات . وحين كان يتمدد على الجسر ، كان يدرك انه لم يكن له ان ينام بل ان يسهر ، ان يسهر ضد الاصدقاء ، وضد رقاية النفس والجسد . ولقد كان عليه ان يبني سعادته وتبريره . وستكون المهمة الآن بالنسبة له أيسر بلا شك . وحيال السلام الغريب الذي كان ينفذ اليه امام المساء الذي يقدو فجأة اكثر رطوبة على البحر ، والنجمة الأولى التي تقصو ببطء في السماء حيث كانت الاشعة تموت خضراء . لتحيا من جديد صفراء ، حيال ذلك كله ، كان يحس بعد هذا الصخب الكبير وهذه العاصفة ان ما كان في نفسه غامض ورديء يرسب ليبقى من بعده الماء الصافي الشفاف لنفس تعود الى الطيبة والعزم . كان يرى بوضوح . وكان قد أمّل طويلا بحب امرأة . على انه لم يكن قد صنع من اجل الحب . فخلال حياته ، في مكتب المرقأ ، وغرفة نومه ، ومطعمه وعشيقته ، كان قد لاحق ، يبحث فريد ، سعادة كان في اعماق ذاته ، وجميع الناس ، يعتقدوها مستحيلة . كان قد لعب لعبة إرادة ان يكون سعيداً . ابداً لم يكن قد أرادها بتصميم واع محرر . ابداً وحتى الآن . وابتداء من هذه اللحظة ، وبسبب حركة واحدة محسوبة بكل وعي ، كانت حياته قد تغيرت ، وكانت السعادة ممكنة . كان بلا شك قد ولد في الآلام هذا الكائن الجديد . ولكن اية قيمة كانت له اذا قيس بالمهزلة المهينة التي كان يلعبها فيما مضى . كان يرى مثلاً ، ان ما كان قد شده الى مارت ، كان الغرور اكثر بما كان الحب ، بما في ذلك معجزة الشفتين اللتين كانت غدهما له ، تلك المعجزة التي لم تكن سوى الدهشة الفرحة لقدرة كانت تتعرف على ذاتها وتفتح على الانتصار . وكل تاريخ حبه كان في الحقيقة استبدال هذه

الدهشة الأولية بيقين ، وتواضعه بغرور . كان قد أحب فيها هذه الأمسيات التي كانا يظهران فيها في دور السينما والتي كانت الانظار تتجه فيها نحوها ، وتلك اللحظة التي كان يقدّمها فيها الى العالم . كان يحب فيها ذاته وقدرته وطموحه لأن يحيا . ولعل لذته نفسها ومذاق جسده كله العميق ربما كان صادراً من هذه الدهشة الأولى لامتلاك جسد جميل جمالاً فريداً ، والسيطرة عليه واذلاله . والآن كان يدرك انه لم يكن مصنوعاً لهذا الحب ، بل للحب البريء العنيف لإله اسود سيتعبده بعد الآن .

وكما يحدث غالباً ، كان احسن ما في حياته قد تركّز حول أسوأ ما قد كان فيها : كليز وصديقاتها، وزغرو وإرادته للسعادة حول مارت . وكان يدرك الآن ان على إرادته للسعادة ان تتقدم . ولكن لأجل ذلك كان يدرك ان عليه ان يتوافق مع الزمن ، وان امتلاك الوقت كان في آن واحد اجمل التجارب ، واطرها ، والبطالة ليست شؤماً الا على الاردياء . بل ان كثيرين لا يستطيعون ان يشبوا انهم غير أردياء . وكان هو قد امتلك هذا الحق . ولكن كان ما يزال يفتقر الى اقامة الدليل . شيء واحد كان قد تغير . كان يحس نفسه حراً تجاه ماضيه ، وتجاه ما كان قد فقده . لم يكن يريد إلا هذا الحصر وهذا الحيز المغلق في ذاته ، وهذه الحميا الواعية الصبور أمام العالم .

كان يود فقط ان يضم حياته بين يديه ، كما يُضفط خبز حارّ ويُنهك ، او كما فعل في ليلي القطار الطويلتين اللتين كان يستطيع ان يتحدث فيهما مع نفسه وينتهي للحياة . كان يود ان يلحس حياته كقطعة حلوى ، ان يكوّنّها ، ان يشحذها واخيراً ان يجيها . هنا ، كان يكمن كل هواء . وحضور ذاته هذا لذاته كان جهده بعد الان مبذولاً لكي يبقيه امام جميع وجوه حياته ، حتى مقابل وحدة كان يدرك الان كم هو صعب احتلالها . إنه لن يخون أبداً . فعنه كله كان يساعده في ذلك ، والنقطة التي كان يحملها اليها ، كان حبه يلتقي عندها كشهوة جاعة للحياة .

كان البحر يتكسر يهدوء على جوانب المركب . وكانت السماء تمتليء بالنجوم ، وكان مرسومًا يحس في نفسه قوى فائقة عميقة ليحب هذه الحياة ويعجب بها ، هذه الحياة ذات الوجه المصنوع من الدموع والشمس ، هذه الحياة في الملح والحجر الحار ، وكان يخيّل له ان جميع قوى الحب واليأس لديه ستتضافر لكي تداعبها . وهنا كان يكمن فقره وغناه الفريد . كان ذلك كما لو أنه ، انطلاقاً من الصفر ، كان يستأنف اللعبة ، ولكن مع وعيه لقواه وللحمى الواعية التي كانت تضغط عليه في وجه مصيره .

وبعد ذلك كانت مدينة الجزائر ، والوصول البطيء عند الصباح ، وشلال القصبة الباهر فوق البحر ، والتلال والسماء ، والجون بذراعيه المبسوطتين ، والبيوت بين الأشجار ورائحة المرافيء التي بدأت تقترب . وإذ ذاك لاحظ مرسوم أنه ، منذ فيينا ، لم يكن قد فكر مرة واحدة بزغرو على أنه الرجل الذي كان قد قتله بيديه . وعرف في نفسه ملكة النسيان ، تلك التي لا يمتلكها إلا الطفل ، والمبقرى والبهري . وبريثا ، مبلبلا بالفرح ، أدرك أخيراً انه كان مخلوقاً للسعادة .

## الفصل الثالث



يتناول باتريس وكاترين فطورهما تحت الشمس ، على السطحة . ترتدي  
كاترين ثياب السباحة ، و«الفتى» ، كما تدعوه صديقاته ، يرتدي « السليب » ،  
وحول عنقه منشفة . إنها يأكلان بندورة مع الملح ، وسلطة البطاطا ، وعسلا  
وفاكهة بكمية كبيرة ، ويضعان دراقاً ليبرد في الثلج ، وحين يرفعانه ، يلحسان  
قطرات العرق عن زغب القشرة الحملي . كما أنها يعدان عصير العنب ويشربانه  
وهما يرفعان وجهيهما نحو الشمس من أجل تسميرهما ( على الأقل باتريس الذي  
كان يعلم ان السمرة في صالحه . )

قال باتريس ، وذراعه ممدودة نحو كاترين :

— استنشقي الشمس .

ولحست الذراع ، وقالت :

— اجل ، استنشقي انت ايضاً .

فاستنشقت ثم تمدد وهو يلامس خاصرتيه .. اما هي فقد استلقت على بطنها  
وأزتلت ثيابها حتى كليتيها .

— هل أنا فاحشة ؟

قال الفتى الذي لم يكن ينظر :

— لا .

وسالت الشمس وتباطأت على وجهها ، كانت مسامه رطبة بشكل طفيف ،  
فأخذ يتنفس هذه النار التي كانت قفمره وتنبهه . وخمرت كاترين شمسها  
وتأوتت وأنت ، ثم قالت :

— هذا لذيذ .

قال الفتى :

— نعم .

كان البيت معلقاً عند قمة تلة كان الجولون يرى منها . وفي الحي ، كانوا  
يسمونه « بيت الطالبات الثلاث » . وكان يصعد اليه بطريق شديد الوعورة  
يبدأ في شجرات الزيتون وينتهي بها . وفي وسطه ، كان يشكل نوعاً من  
المنبسط ، على طول حائط رمادي مغطى برسوم داعرة واستشادات سياسية ،  
كانت قراءتها تعيد النفس للمسافر المنهوك . وبعد ذلك ، كانت شجرات  
الزيتون أيضاً ، وغسيل السماء الأزرق بين الأغصان ، ورائحة المصطكا على  
طول الحقول المحمرة حيث كانت أقمشة بنفسجية صفراء وحمراء تجف . وكان المرء  
يصل ، وقد غرق في ضيق شديد من العرق والتنفس ، ويدفع حاجزاً صغيراً  
أزرق وهو يتعاشى مغلّب الجهنميات ، ويبقى عليه أيضاً ان يتسلق سلهماً واقفاً  
كسبية ، ولكنه مغطى بظلال زرقاء كان بالامكان عندها تخفيف العطش . وكانت  
روز وكلير وكاترين والفتى يسمونه « البيت أمام العالم » . كان مشرعاً  
بأكمله على الطبيعة ، فكان كسلّة منطاد متديلاً في السماء الباهرة فوق رقص العالم  
الملوّن . وابتداء من الجولون حتى المنحنى الكامل ، في الاسفل ، كان نوع من الاندفاع  
يمزج الاعشاب والشمس ويحمل الصنوبر والشربين والزيتونات المغبرة والاولو كالبتوس  
حتى اقدام البيت . وفي قلب هذه الهبة كانت تزدهر ، وفقاً للفصول ، زهور  
النسرين البيضاء ، والميموزا ، وزهور العسل هذه التي كانت تترك عطرها يصعد من  
جدران البيت في أمسيات الصيف . كان « البيت أمام العالم » بنفسيله الأبيض

وسقوفه الحمراء، وبإتسامات البحر تحت السماء المشبوكة بلائنيّة من أول الافق حتى منتهاء، يشرع عنبياته العريضات على هذا المعرض من الالوان والاضواء. ولكن، في البعيد، كان خط من الجبال العالية البنفسجية يلتقي بالجون عند منحدره الأقصى فيحتوي هذه النشوة في رسمها البعيد. واذ ذاك، لا يمكن لأحد ان يتأفف من الطريق الشاق ومن التعب. كان على المرء كل يوم ان يكتسب فرحه.

ان يعيش الانسان هكذا أمام العالم، وان يحس ثقله وان يرى وجهه يشرق كل يوم ثم يخبول للغد، ويحترق بكل شبابه، فقد كان ذلك يمنح سكان البيت الأربعة وعيا بحضور. كان بالنسبة لهم حكماً وتبريراً. فالعالم، هنا، كان يصبح شخصاً، وكان يحسب بين أولئك الذين نستمد منهم النصيحة بقبول أكثر، أولئك الذين لم يقتل التوازن عندهم الحب كانوا يتخذونسه شاهداً :

كان باتريس يقول في معرض أيّ حديث : «أنا والعالم، لا نقرّكم»

اما كاترين التي كان العربي بالنسبة لها يعني التخلص من الاحكام المسبقة، فقد كانت تفيد من غياب الفقى لتتعرّى على السطحية، وتتأمل تبدل الوان السماء. وكانت تقول، على الطاولة، بلهجة من الغرور الحسي :

— كنت عارية أمام العالم.

وكان باتريس يقول باحتقار :

— اجل. ان النساء يفضلن بالطبع افكارهن على أحاسيسهن.

وعندها كانت كاترين تقفز لأنها لم تكن تريد أن تكون مثقفة. وكانت روز وكليز تصرخان معاً :

— اسكتي كاترين، انك على خطأ.

ذلك انه كان من التعارف عليه ان كاترين كانت دائماً على خطأ ، مادامت هي التي كان الجميع يحبها بالطريقة نفسها . لقد كانت تملك جسداً وازناً ومرسوماً ، بلون الخبز المحروق ، وكان لديها الغريزة الحيوانية بكل ما هو أساسي في العالم . ولم يكن احد أجدر منها بتميز اللغة العميقة للأشجار والبحر والهواء .

وكانت كليز تقول ، وهي تأكل بلا انقطاع :  
- هذه الصغيرة ، هي إحدى قوى الطبيعة .

ثم كان الجميع يذهبون ليتدفأوا بالشمس ويصمتوا . ان الإنسان يحبط من قوة الإنسان . في حين ان العالم يتركها بكرة . ولقد كانت روز وكلير وكاترين وباتريس ، عند نوافذ بيتهن ، يعيشون في الصور وفي الظاهر ، وكانوا يرتضون هذا النوع في اللعب الذي كانوا يعقدونه في ما بينهم ، وكانوا يضحكون للصدقة كما يضحكون للحنو ، ولكن عندما كانوا يمثلون من جديد أمام رقص السماء والبحر ، كانوا يجدون اللون الحقيقي لمصيرهم فيتلاقون أخيراً بأحق ما في ذواتهم . وكانت القطط أحياناً تأتي لتلتحق بأسيادها . كانت « غولا » تتقدم ، « مهانة » باستمرار ، نقطة استفهام سوداء بعينين خضراوين ، نحيفة وناعمة ، مأخوذة فجأة بالجنون ، متخبطة ضد اشباح . وكانت روز تقول :

- « انها مسألة غدد صماء . »

ثم كانت تضحك ، فأنفخت نفسها كلها لضحكها ، بشعرها المجدد ، وعينها المزمومتين المبتهجتين وراء نظارات مستديرة ، حتى تقفز عليها غولا ( وهذه خطوة خاصة ) . وحين تمر أصابعها الناعمة على الوبر اللامع ، تلين روز ، وتسترخي . وإذا تصبح قطرة ذات عينين ناعمتين ، تهديء الوحش بيدين لطيفتين أخويتين . ذلك ان القطط كانت الباب الذي تخرج منه روز الى العالم ، كما كان العري

باب كاترين . وكانت كلير تفضل القط الآخر الذي هو « كالي » . كان هادئاً  
ساذجاً كوبره الأبيض المتسخ ، وكان يستسلم للتعذيب ، وكانت كلير ذات الوجه  
الفلورنسي ، تحس آنذاك بروحها رائعة . كانت صموتاً ومغلقة على ذاتها ،  
تتخللها انفجارات مفاجئة ، وكانت غلك شهية جيدة . وكان باتريس يراها  
تسمن فيويخها .

كان يقول :

— انك تبعثين فينا القرف : ان كائناً جليلاً لا يحق له أن يقبح.

ولكن روز كانت تتدخل :

— متى ستنتهي من معاكسة هذه الطفلة ؟ كلي يا اختي كلير .

وكان اليوم يدور من الشروق حتى المغرب حول التلال وعلى البحر تحت  
الشمس اللطيفة . كانوا يضحكون ، وينكتون ويضعون المشاريع . كل منهم  
يبتسم للظاهر ويتظاهر بأنه يخضع لها . وكان باتريس يتنقل من وجه العالم الى  
وجوه النساء الشابات الرصينة الباسمة . وكان أحياناً يندهش من هذا الكون  
المنبعث حوله : ثقة وصداقة ، شمس وبيوت بيضاء ، ظلال من الفروق لا  
تكاد تسمع ، هنا كانت تولد سعادات بكر كان يقيس صداها الدقيق . وكانوا  
يقولون فيما بينهم ان « البيت أمام العالم » ليس بيتاً يتسلى فيه المرء ولكن  
بيت يكون فيه المرء سعيداً . وكان باتريس يحس ذلك جيداً ، عندما تكون  
الوجوه متجهة نحو المساء ، فيفتحون نفوسهم جميعاً ليدخلها ، مع آخر نسمة ،  
الاعراء الانساني الخطر في ان لا يشبه المرء شيئاً .

ذهبت كاترين ، هذا اليوم بعد حمام الشمس ، الى المكتب ، فقالت روز  
وقد انبثقت فجأة :

— عزيزي باتريس ، لديّ خبر سارّ أعلنه لك .

في الغرفة - السطحية ، كان الفتي متمدداً بشجاعة على أريكة ، في هذا اليوم ، وبين يديه رواية بوليسية . قال :  
- يا عزيزتي روز . انني أصغي إليك .  
- ان هذا اليوم هو دورك للطبخ .  
قال باتريس من غير ان يتحرك :  
- حسناً .

وذهبت روز ، حاملة حقيبتها المدرسية ، التي وضعت فيها بلاميز فليفلة الغداء ومجلد « التاريخ » الجزء الثالث ، المضجر ، مؤلفه لافيس .  
وأخذ باتريس ، الذي كان عليه ان يطبخ فاصوليا ، يتسكع حتى الساعة الحادية عشرة ، فيتأمل الغرفة الكبيرة بحيطانها الممطرة ، المفروشة بالأرائك والرفوف والاقنعة الخضراء والصفراء والحمراء ، وبالطنافس الحريرية ذات التخطيطات البرتقالية ، ثم غلى العدس بمفرده ، ووضع الزيت في القدر ، ويصلة للتطرية ويندورة وإريباناً محشواً ، وانهمك وهو يلعن غولا وكالي اللذين كانا يحتجتان من فرط الجوع ، بالرغم من ان روز قد شرحت لهما البارحة قائلة :  
- يجب ان تعلمي ، ايها القطان ، ان الجو في الصيف هو أشد حرارة من ان يشعر فيه أحد بالجوع .

قبل الظهر بربع ساعة ، وصلت كاترين ، مرتدية فستاناً خفيفاً وصندلاً مكشوفاً . وكانت بحاجة الى حمام بارد وحمام شمسي ، ولهذا فستكون آخر من يجلس الى المائدة ، وستقول روز بقسوة .  
- انك غير محتملة ، كاترين .

والماء يصفر في الحمام ؛ وما هي كلير تقول لاهثة :  
- هل تطبخ عدساً ؟ إن لدي وصفة جيدة جداً .

— انني اعرف . آخذ زبدة طازجة .. إنك تكرررين كلامك يا عزيزتي  
كلير .

والواقع ان جميع وصفات كلير تبدأ دائماً بالزبدة الطازجة .

قالت روز القادمة لتوها :

— انه على حق .

قال الفتى :

— نعم .. لنجلس الى الطاولة .

أكلوا في مطبخ هو في الوقت نفسه مخزن للوازم . وكان فيه كل شيء حق  
مفكرة لتسجيل نكات روز . قالت كلير :

— لكن لاثنين ، ولكن بسطاء .

وأكلت سحبقها بأصابعها . ووصلت كاترين بتأخير ملائم ، ثملة مكتئبة ،  
شاحبة العينين من النعاس . ولم يكن في روحها ما يكفي من المارارة لتفكر  
بمكتبها — ثنائي ساعات تنتزعها من العالم ومن حياتها لتمنحها الى آلة كاتبة .  
وصديقاتها يدركن ويفكرون بما عساها ستكون حياتهن اذ تبتارها هذه الساعات  
الثماني ، وكان باتريس صامتاً .

قالت روز ، التي لا تحب ، مظاهر الحنان والعطف :

— إن هذا في الواقع يشغلك . ثم انك قبل كل شيء تحدثيننا عن مكتبك  
كل يوم .. أننا نحرملك حق الكلام .

وتأوهت كاترين قائلة :

— ولكن ...

— بالتصويت ، في هذه الحالة . واحد ، اثنان ، ثلاثة ، الأغلبية ضدك .

قالت كلير :

- إنك ترين .

ووصل العدى ، مفرط الجفاف . فأكلوا جميعاً بصمت . عندما تطبخ كلير ،  
تتذوق الطعام على الطاولة ثم تضيف دائماً بلمحة راضية :

- ولكن هذا ممتاز !

أما باتريس ، الذي يحافظ على رصانته ، فيفضل السكوت حتى اللحظة التي  
ينفجر فيها الجميع بالضحك . وكاترين التي لم تكن ذلك اليوم موفقة في  
خيالاتها ، ولكنها كانت تريد الحصول على اسبوع عمل بأربعين ساعة ، فقد  
طلبت منهم ان يرافقوها الى « الاتحاد العام للعمل » .

قالت روز :

- لا ، انك انت التي تعملين ، بعد كل حساب .

وذهبت « قوة الطبيعة » لتستلقي في الشمس وهي ساخطة . ولكن ما  
لبث الجميع أن وافوها الى هناك ، واعتقدت كلير ، وهي تداعب باهمال شعر  
كاترين ، ان ما ينقص « هذه الطفلة » هي في الحقيقة رجل . ذاك أن المادة  
المألوفة في « البيت أمام العالم » هو أن يقرروا مصير كاترين ، وان ينسبوا اليها  
حاجات يعددون لها امتدادها وتنوعها . صحيح انها كانت تلاحظ من وقت  
الى آخر انها راضدة كفاية ، ولكنهم لا يستمعون اليها . وتقول روز :

- يا للسكينة ! إنها بحاجة الى عشتى .

وبعد ذلك يستسلم الجميع لحرارة الشمس ، فتدوي كاترين ، التي لم تكن  
حقودة ، حكاية من حكايات مكتبها وكيف ان الآنسة بيريز ، الشقراء الطويلة ،  
التي ستزوج عما قريب ، تطوف على الدوائر لتتوثق من الاوصاف الخفيفة التي يسر



المسافرين ان ينعتوها بها ، وكيف صرخت ، وهي تبسم عندما عادت من العطلة التي اخذتها بمناسبة الزواج: «لم يكن ذلك فظيماً الى هذا الحد». وتضيف كاترين في رثاء : « انها في الثلاثين » .

وقالت روز مستنكرة هذه القصص الخطيرة : « عجباً ، يا كاترين ، تنسين ان الموجودات هنا لسن فقط فتيات صبيات » .

في هذه الساعة ، يمرّ البريد الجوي فوق المدينة ، وينتزه زهو معدنه اللامع على الارض وفي السماء ، ويدخل في حركة الجون ، فينحني مثلها ، ويندمج بسياق العالم ، متخلياً هنا عن لعبه ، وينعطف فجأة ، ويقطس طويلاً في البحر ويحطّ في انفجار كبير من الماء الأبيض والأزرق . وتندد غولا وكالي على جنبيها ، ومن خلال شذقيها الصغيرين الشبيهين بقم الأفعى كان يترامى سقف حلقها الوردي ، وكانت احلام مترفة فاحشة تخترقها وتحث ارتعاشات في جنبيها . وسقطت السماء من الأعالي بكل حملها من الشمس والألوان . واحست كاترين ، وهي مغمضة العينين ، بالسقوط الطويل العميق الذي يعيدها الى اعماق ذاتها حيث يتحرك بلطف هذا الحيوان الذي ينتعش كأنه إله .

في الأحد التالي ، انتظروا ضيوفاً . وكان على كلير ان تطبخ . وقد قشرت روز الحضر ، وهيات الصحن والطاولة . ثم وضعت كلير الحضر في الأوعية وراقبت الطبخ وهي تقرأ في غرفتها . وبما ان ميناً لاموريسك لم تأت ذلك الصباح لأنها فقدت والدها للمرة الثالثة في السنة ، فقد قامت روز أيضاً بالتنظيف . ووصل المدعون ، وعلى رأسهم اليان ، التي يدعوهما مرسو « المثالية » فتسأله : «ولماذا ؟» فيجيبها : «لأنه حين يقال لك شيء حقيقي يفيظك تقولين : هذا صحيح ، ولكنه غير صالح » .

والبيان ذات قلب طيب وتجدد نفسها شبيهة: « رجل القفاز » وهو شبه ينكره عليها الجميع. ولكن غرفتها الخاصة مفروشة برسوم « رجل القفاز ». والبيان تدرس . وفي أول مرة جاءت الى « البيت أمام العالم » صرحت بأنها مسحورة بانعدام الاحكام المسبقة عند ساكنيه . ومع الزمن ، وجدت هذا أقل ملاءمة . فان لا يكون لديك أحكام مسبقة ، فذلك يتضمن ان تقول لها ان القصة التي روتها وأتقنتها بما أضفته عليها من عنايات انما هي قصة مضجرة تماماً ، وان تصرّح بمحبة عند أقل جملة : « البيان ، لست سوى حمقاء » .

عندما دخلت البيان المطبخ مع « نويل » ، المدعو الثاني الذي يمتن مهنة النحات ، وقعت على كاترين التي لم تكن تطبخ ابداً بوضع طبيعي . كانت مستلقية على ظهرها تأكل عنباً بيد وتحرك المايونيز الذي ما يزال في أوله بيدها الاخرى . اما روز ، التي كانت ترتدي مريولاً أزرق كبيراً ، فكانت تتأمل ذكاء غولا التي قفزت على الثريد لتأكل طعام الظهر .

قالت روز مغتبطة :

— لاحظي كم هي ذكية !

قالت كاترين :

— نعم ، انها تتفوق اليوم على ذاتها .

وأضافت ان غولا التي تزداد ذكاء قد كسرت هذا الصباح المصباح الصغير الاخضر وإناء للورود .

وقرر البيان ونويل ، اللذان كانا بلا شك مبهورين اكثر مما ينبغي ليعبرا عن قرفها ، قررا ان يتخذا لنفسهما مقعداً لم يفكر احد ان يقدمه لها . ووصلت كلير ، لطيفة مسترخية ، فصافحت الأيدي وتذوقت حساء السمك على النار . وفكرت ان بالامكان الجلوس الى المائدة . ولكن باتريس هذا اليوم

كان متأخراً . إلا انه ما لبث أن وصل ، وبذلاقة لسان ، شرح لكثير انه سعيد لأن النساء كن جيلات في الشوارع .

كان الموسم الحار في مطلعه ، ولكن الاثواب الزاهية التي ترتجف تحتها اجسام قاسية قد ظهرت . وبسبب ذلك أحس باتريس بفعه جافاً ، وصدغيه خافقين وأحشائه حارّة ، وأمام هذه الدقة في التعابير ، لزمت اليان وظهرها الصمت . وعلى المائدة ، تلا الذعر اولى ملاعق حساء السمك . قالت كلير ، المغناج ، بأسلوب صاف جداً :

- اخشى ان يكون لهذا الحساء طعم بصل محروق .

قال نويل ، الذي كان الجميع يحبون قلبه الطيب :

- ولكن لا .

ولمّا ذاك رجهت روز ، لتمتحن هذا القلب الطيب ، ان يشتري للبيت عدداً من الاشياء النافعة كسخّان اللحام وسجاد عجمي وبراد . وأجاب نويل مشجعاً روز على ان تصلي له ليربح هو نفسه في اليانصيب .

قالت روز بواقعية :

- ما دام علينا ان نصلي ، فانتنا نصلي لأجلنا !

كان الجو حاراً حرارة كثيفة تجعل الحفر الثلج والفاكهة المجلوبة لتوها أطيب مذاقاً . وعند تناول القهوة ، تتحدث اليان عن الحب بشجاعة كبيرة . فلئن أحببت ، ستزوج . قالت لها كاترين ان اكثر الامور إلحاحاً عندما يحب المرء هو ممارسة الحب . وكان ان شتعت هذه السياسة المادية اليان . أما روز ، البراغمية ، فانها كانت توافقها « لو لم تكن التجربة » ، مع الاسف ، قد اثبتت ان الزواج يقتل الحب .

ولكن اليان وكاترين تقسران افكارهما في الماكسة فتصبحان جائرتين كما

يحصل عندما يكون المرء صاحب مزاج . أما نويل ، الذي يفكر حسب  
الأصول والمألوف فيعتقد بالمرأة وبالأولاد وبالحقيقة الأبوية في حياة حسية وازفة .  
وإذ أرهقت روز بصراخ الليان وكاترين ، تصنعت انها تفهم فجأة الغاية من  
زيارات نويل العديدة . قالت :

- انني أشكرك ؛ ولن أستطيع ان أعبر لك عن مبلغ تأثري بهذا  
الاكتشاف . وسأحدث منذ القدر الى والدي عن « مشروعنا » وتستطيع  
أن تحده عن طلبك في غضون أيام .

قال نويل الذي لم يفهم جيداً :

- ولكن ...

قالت روز باندفاع كبير :

- أوه . انني أعلم . انني أفهمك من غير ان تكون بحاجة للكلام . إنك من  
أولئك الذين يصمتون وهم يحتاجون الى أن يفهموا . والحق أنني سعيدة  
لكونك افصحت عن رأيك ، لأن تكرار زيارتك قد بدأ يمسّ طهارة  
سمعتي .

ويدا نويل مسروراً قلقاً بعض الشيء ، فأعلن عن ابتهاجه برؤية رغباته  
وقد توجت .

قال باتريس هويشعل لفاقة :

- من غير ان تحسب ان عليك ان تسرع . فان وضع روز يلقي عليك  
تبعة في استعجال الأمور .

قال نويل :

- ماذا ؟

قالت كلير :

— يا الهي ! اننا لسنا بعد إلا في الشهر الثاني .

وأضافت روز بحنان واقتناع :

— ثم انك بلغت السن التي يكون فيها المرء سعيداً بأن يتعرف على ذاته في طفل رجل آخر .

وتجهم نوبل قليلاً، وقالت كثير، بلهجتها الطفولية الطيبة :

— انها مزحة ! ينبغي أن تأخذها بروح النكتة . لننتقل الى الصالون .

وفي اللحظة نفسها انتهى النقاش حول المباديء . ومع ذلك فان روز التي تقوم بتصرفاتها الجيدة في الحفاء تتحدث بهدوء الى اليان . وفي الغرفة الكبيرة ، وقف باتريس عند النافذة .

واستقامت كثير مستندة الى الطاولة واستلقت كاترين على الحصير . أما الآخرون فقد جلسوا على الديوان ، وكان ضباب كثيف يرفّ على المدينة والمرقأ . ولكن السفن الجرارة تستأنف عملها ، وتحمل نداءاتها الرصينة الى هنا ، مع روائح القطران والسمك ، عالم الهياكل الحمراء والسوداء والمرابط الصدئة والسلاسل اللزجة بالفطر ، ذلك العالم الذي يستيقظ تحت . وككل يوم ، كان هو النداء الرجولي الاخوي لحياة تحمل مذاق القوة ، فيحس الجميع هنا باغرائها او ندائها المباشر .

قالت اليان لروز بحزن :

— وانت ايضاً ، في الواقع ، مثلي .

قالت روز :

— لا . انني أحاول فقط ان أكون سعيدة والى أقصى حدّ ممكن .

قال باتريس من غير ان يتلفت :

— وليس الحب هو الوسيلة الوحيدة .

إنه يكنّ شغفاً كبيراً للإليان ، ويخشى ان يكون قد آلمها اللحظة . ولكنه يفهم روز في ارادتها أن تكون سعيدة .

قالت اليان :

— إنه مثل أعلى رديء .

— لا أدري ان كان مثلاً أعلى رديئاً ، ولكنه مثل أعلى سليم . وهذا،  
أترين ...

ولم يتابع باتريس ، وأغمضت روز عينيها قليلاً . وقفزت غولاً الى ركبتها . وبعداً عبات طويلة على عظام ججمتها ، مهدت روز لهذا الزواج الخفي الذي سترى فيه القطة المغمضة العينين نصف اغماضة وسترى المرأة الجامدة بالنظرة نفسها عالماً متشابهاً كل منها يحلم بين نداءات السفن الطويلة . وتركت روز يتصاعد اليها مواء غولاً الملتفة في تجويف جسدها . وكانت الحرارة تضغط على عينيها وتفرقها في صمت مسكون بخفقات دمها . ان الهرة تنام اياماً بكاملها وتتحاب منذ بزوغ النجمة الاولى حتى الفجر . أن شهوتها تنهش ونومها ثقيل . وهي تعلم أيضاً ان للجسد روحاً ليس للروح فيه اى نصيب .

قالت روز وهي تفتح عينيها :

— اجل ، أودّ أن أكون سعيدة . والى أقصى حدّ ممكن .

كان مرسو يفكر بلوسيان ريتال . عندما كان قد قال منذ فترة قليلة ان النساء كن جيلات في الشوارع ، كان يود ان يقول خاصة ان امرأة كانت قد بدت له جميلة . وكان قد التقى بها عند اصدقاءه . ولأسبوع خلا ، خرجا معاً ، واذ لم يكن عندهما ما يفعلانه ، فقد تنزها على البولفار ، بمحاذاة المرفأ ، في

صبيحة جميلة حارة . لقد امتنعت عن الكلام وحين صاحبها الى بيتها ، كانت مرسو مندهشاً وهو يشد على يدها طويلاً وابتسم لها . كانت طويلة ، ولم تكن تلبس قبعة ، وكانت منتعلة صندلاً مكشوفاً ومرتدية ثوباً من الكتان الأبيض . كانا قد مشيا على البولفسار في وجه ربيع خفيفة . وكانت تضع قدمها مبسوطة على البلاط الحار ، وتستند اليها لترفع نفسها قليلاً . في وجه الريح وفي هذه الحركة ، كان ثوبها يلتصق بها ويرسم بطنها المسطح المكور . وكانت تمثل بشعرها الاشقر الملقى الى خلف ، وأنفها الصغير المستقيم ، وانطلاق نهديها الرائع ، كانت تمثل وتؤكد نوعاً من الاتفاق السري كان يربطها بالأرض وينظم العالم حول حركاتها . وفيما كانت حقيبتها تتأرجح بيدها اليمنى المزينة بسوار من الفضة كان يطقطق على القفل ، وعندما كانت ترفع يدها اليسرى فوق رأسها لتتقي الشمس ، وطرف رجلها اليمنى على الأرض ما تزال ، ولكنها على وشك ان تغادرها ، عندها كان يخيل لمرسو انها كانت تشد حركاتها الى العالم .

وآنذاك أحسّ بالتوافق السري الذي كان يؤلف خطواته وخطوات لوسيان . كانا يعيشان معاً بتناسق من غير ان يبذل اي جهد لينسجم معاً . صحيح ان هذا التوافق كان ميسراً بجذاء لوسيان المسطح . ولكن كان في دعساتها شيء مشترك بينهما في الطول والمرونة . وفي آن واحد ، لاحظ مرسو صمت لوسيان وهيئة وجهها المنقبضة . وفكر بانها كانت على الأرجح ناقصة الذكاء ، وسرّ لذلك . هناك شيء إلهي في الجمال الخالي من الفكر ، وكان مرسو . يعرف أفضل من أي كائن آخر ، كيف يتأثر بذلك . كل ذلك جعله يطيل تلمسه لأصابع لوسيان ، ويتقابلها كثيراً ، ويتنزه طويلاً معها بسيرة صامتة مانحين وجهيهما المسمرين للشمس او للنجوم ، ساجدين معاً ، مؤلفين حركاتهما واقدامهما من غير ان يتبادلا إلا حضور جسديهما . وقد تم ذلك كله حتى مساء

أمس إذ وجد مرسو معجزة مألوفة ومثيرة على شفتي لوسيان . إن ما كانت  
يشير به حق الآن كان طريقتهما في التعلق بشبابه ، واتباعه متأبطة ذراعه ، وذلك  
الامتسلاام وتلك الثقة اللذان كانا يمسان الرجل فيه . وكذلك صمتها الذي كان  
يضعها برمتها في حركتها الآنية ويكمل تشابهها مع الققط التي كانت تدن لها  
بالرزانة التي كانت تسبغها على جميع اعمالها .

وأمس ، بعد العشاء ، كان قد تنزه على المرفأ معها . وذات لحظة ، كانا قد  
توقفا على حاجز البولفار فالتصقت لوسيان بمرسو . وفي الليل احس تحت  
اصابعه بالوجنتين الثلجيتين البارزتين ، والشفتين الدافئتين دفناً كان الاصبع  
يقوص فيه . وإذ ذاك احس في نفسه ما يشبه صراخاً كبيراً متجرداً ملتهباً .  
وأمام الليل المثقل بالنجوم ، والمدينة ، كسماء مقلوقة مليئة بالأضواء البشرية  
تحت النفس الساخن العميق الذي كان يصعد من المرفأ نحو وجهه ، كان يراوده  
العطش لهذا النبع الدافئ ، وتعصف به ارادة لا تكبح لكي يلتقط على  
هاتين الشفتين النابضتين كل معنى هذا العالم اللاانساني الغافي ، كأنه صمت مسجون  
في فمها . وانحنى فكان ذلك كما لو أنه كان يضع شفتيه على عصفور . وأنت  
لوسيان . وكان بعض شفتيها طوال دقائق ، وقمه لصق فمها ، كان يشرق  
هذا الدفء الذي كان يحمله كما لو انه كان يضم العالم بين ذراعيه . وكانت هي ،  
اثناء ذلك ، تتشبث به ، كأنها غريقة ، وتنبثق بدفعات من هذا الثقب الكبير  
العميق الذي كانت ملقاة فيه ، وتبعد شفتيها اللتين كانت تجذبها بعد ذلك ،  
لتسقط في المياه المجددة السوداء التي كانت تحرقها كشعب من الآلهة .

... ولكن البان كانت قد بدأت بالذهاب . وكان عصر طويل من الصمت  
والتفكير ينتظر مرسو في غرفته . وعند العشاء كانوا جميعهم صامتين .  
ولكنهم بتوافق موحد انتقلوا جميعاً الى السطيجة . ان الانهارات تنتهي دائماً



بان تلتحق بالنهارات . من الصباح على الجون ، المتلائيء بالغيوم والشمس ، حتى  
عذوبة المساء ، على الجون يبزغ النهار على البحر ويفيب خلف الروابي لأن  
السماء لا تكشف إلا طريقاً واحداً ينطلق من البحر حتى الروابي . ان العالم  
لا يقول ابداً إلا شيئاً واحداً . فيعري ثم يسئم . ولكن يأتي دائماً وقت  
ينتصر فيه بقوة الترداد فيقبض ثمن مثابرته . وهكذا فان أيام « البيت امام  
العالم » المنسوجة من القماش المترف للضحكات والحركات البسيطة تنتهي على  
السطيحة أمام السماء المليئة بالنجوم . كانوا يتمددون على مقاعد طويلة ، وكانت  
كاترين جالسة على حائط السور .

وفي السماء ، يلتمع وجه الليل المعتم ملتبهاً وسرياً ، وتقرأ أضواء بعيدة  
جداً في المرفأ ويتباعد زئير القطارات . وتكبر النجوم ثم تتقلص وتختفي  
ثم تولد من جديد ، موحدة وجوها متقلبة فيما بينها . وفي الصمت ، يسترد الليل  
كثافته ولحمه ، ومثقلاً بانزلاقات نجومه ، كان يترك في العيون الاعيب الأضواء  
التي تضع فيها الدموع . وكان كل واحد ، وهو يغوص في اعماق السماء ، يلقي  
في هذه النقطة القصوى التي يلتقي فيها كل شيء ، الفكرة الخفية الحنونة التي  
تشكل كل وحدة حياته .

ولم تستطع كاترين ، التي خنقها الحب فجأة ، إلا ان تنهد . ومع ذلك فقد  
سأل مرسو الذي أحس بصوتها متغيراً :

— ألا تشعرين بالبرد ؟

قالت روز :

— لا . ثم ان ذلك جيل جداً .

ونفضت كليلر ، فوضعت يديها على الحائط ومدت وجهها نحو السماء .  
وأمام كل ما في العالم من بدائي ورفيع ، مزجت بين حياتها وبين شهوتها الى  
الحياة ، وخطت أملها مع حركة النجوم . وحين تبتهت فجأة توجهت قائلة  
لباتريس :

— في الأيام الطيبة ، حين تمنح الحياة الثقة ، فهذا يجبرها على ان تردّ بالمثل .  
قال باتريس من غير أن ينظر اليها :  
— نعم .

وانخفضت نجمة ، وخلفها ، انتشر ضوء منارة بعيدة في الليل الذي ازداد  
الآن حلكة . وتسلق رجال الطريق صامتين . وكانوا يُسمعون وهم يراوون  
ويتنفسون بشدة . وبعد قليل فاح عبير ورود .

إن العالم لا يقول ابداً إلا شيئاً واحداً . وفي هذه الحقيقة الصابرة التي  
تنتقل من نجمة الى نجمة ، تترسخ حرية 'تحلّنا من ذواتنا ومن الآخرين ، شبيهة  
بتلك الحقيقة الصابرة الأخرى التي تنتقل من الموت الى الموت . آنذاك كانت  
باتريس وكاترين وروز وكلير يعون السعادة التي تولد من استسلامهم للعالم .

ولئن كان هذا الليل كوجه مصيرهم ، فانهم معجبون بأن يكون حسياً وسرياً في وقت  
واحد ، وان تختلط على وجهه الدموع والشمس . ويعرف قلبهم المليء بالألم  
والفرح أن يستمع الى هذا الدرس المزدوج الذي يقود نحو الموت السعيد .

الوقت متأخر الآن ، فقد بدأ منتصف الليل . وعلى جبين هذا الليل الذي  
يشبه راحة العالم وفكره ، كان تضخم أصمّ وجابة نجوم ينبئان باليقظة القادمة .  
ومن السماء ، المفعم بالكواكب ، ينحدر نور راجف . وينظر باتريس الى صديقاته :  
كاترين مقرصة على الحائط ، رأسها مقلوب الى الوراء ، وروز ، قابضة في  
الكرسي الطويل ، يداها مبسوطتان على غولا ؛ وكلير واقفة متصلة إزاء  
الحائط تعلو لطخة بيضاء جبينها المقبب . كائنات شابة ، قابلة للسعادة يتبادلون  
شبابهم ويحتفظون بأسرارهم . واقترب من كاترين ، ونظر من فوق كتفها  
المصنوعة من اللحم والشمس في كرويتها السماوية . واقتربت روز من الحائط  
فأصبحوا هم الأربعة أمام «العالم» . كان ذلك كما لو ان الندى الليلي الذي غدا

فجأة أكثر نضارة كان يغسل عن جباههم أمارات وحدتهم ويحرّرم من ذواتهم ،  
وبهذا التعميد الراجف الخاطف كان يعيدهم الى العالم ، وفي تلك الساعة التي  
يفيض فيها الليل بالنجوم ، تتسمّر حركاتهم على وجه السماء الكبير الاصم .

ورفع باتريس ذراعه نحو الليل وجرف في انطلاقته باقات من النجوم ، وماء  
السماء الذي خففته ذراعه ومدينة الجزائر تحت قدميه ، وحولهم ما يشبه معطفاً  
قائماً متلألئاً بالجواهر والاصداف .

## الفصل الرابع

في الصباح الباكر ، كانت سيارة مرسو تجري على طريق الساحل بمصباحها المنخفضي الضوء . وحين خرج من مدينة الجزائر ، كان قد أدرك وتجاوز عربات بائعي اللبن ، وكانت رائحة الخيول الممزوجة من العرق الحار والزرية ، قد جعلته أكثر تذوقاً لنضارة الصباح . كان الوقت ما يزال ليلاً ، وكانت نجمة اخيرة تذوب ببطء في السماء ، وعلى الطريق الملتصق في الظلمة ، كان يلحظ فقط صوت وحش المحرك السعيد ، وأحياناً على بعد طفيف ، خبب حصان وضجيج عربية مليئة بالصمائع ، الى ان استطاع ان يدرك ، على الخلفية السوداء للطريق ، يريق الحديد اللامع المربّع على اقدام الحصان . ثم كان كل شيء يضمحل في ضجيج السرعة . كان الآن يسبح بسرعة اكبر ، وكان الليل يميل بسرعة نحو النهار .

وفي اعماق الليل المتراكم بين روابي مدينة الجزائر ، كانت السيارة تخرج على طريق سالكة تشرف على البحر حيث كان الصباح يكتمل . واطلق مرسو لسيارته العنان . كانت العجلات تضاعف على الطريق الرطب بالندى اصواتها الصغيرة الشبيهة بأصوات محجّم . وعند كل منعطف ، كانت ضربّة مكبح تجعل العجلات تترأّر على نحو حادّ ، وفي الخط المستقيم كان خرير الاقلاع الجديد يطنى لحظة على اصوات البحر الصغيرة التي كانت تصعد من الشواطئ ، على مستوى ادنى . إن الطائرة وحدها تتيح وحدة يتحسسها الانسان اكثر مما يتحسس الوحدة التي يكتشفها في السيارة . وقد كان مرسو ، وهو حاضر أمام نفسه حضوراً تاماً ، راضٍ رضى واعياً عن دقة حركاته ، يستطيع في الوقت

نفسه ان يعود الى ذاته وإلى ما كان يشغله . كان النهار الآن مشرعاً عند طرف الطريق . وكانت الشمس ترتفع على البحر ومعها كانت الحقول ذات الحواشي ، المقفرة ، للحظة خلت ، تستيقظ مليئة بالعصافير والحشرات ذات الطيران الأحمر . أحياناً كان فلاح يجتاز أحدها فلا يحفظ مرسو ، وهو مدفوع بالسرعة ، إلا صورة طيف يحمل كيساً ، ويطأ بكل ثقل خطواته على الأرض الدهنية التارّة . وكانت السيارة تعيده بانتظام الى المنحدرات التي تسيطر على البحر . وكانت هذه المنحدرات تتضخم ، وكان طيفها ، الذي لم يكن منذ لحظات يتميز إلا كظل صيني تجاه النهار ، يقترب بسرعة ويتضخم بدقائقه ويقدم لمرسو جنباته المكشوفة فجأة ، مليئة بشجرات الزيتون والصنوبر والبيوت الصغيرة المطينة . ثم كان ينتفخ بالمدّ ويصعد نحو مرسو ، كقربان مليء بالملح والحمرة والنعاس ، وكانت السيارة آنذاك تمر على الطريق وتتجه من جديد نحو منحدرات أخرى ونحو البحر ذاته . لشهر خلا ، كان مرسو قد أعلن رحيله عن « البيت أمام العالم » . كان يريد ان يسافر أولاً ثم يستقر في ضواحي مدينة الجزائر . وبعد بضعة أسابيع عاد ، متأكداً من ان السفر كان يمثل له بعد الآن حياة غريبة : كان الاغتراب يبدو له فقط سعادة انسان قلق ، كما انه كان يحس في ذاته تعباً غامضاً . كان متعجلاً ليحقق المشروع الذي سبق ان وضعه لشراء بيت صغير بين البحر والجبل ، في الشنوة ، على بعد كيلومترات من خرائب تيبازا . ولدى وصوله الى مدينة الجزائر ، كان قد صمم الديكور الخارجي لحياته ، فاشترى كمية هامة من المستحضرات الصيدلانية الألمانية وعيّن موظفاً كان يدفع له للأشراف على العمل ، مبرراً بهذه الطريقة غيابه عن مدينة الجزائر والحياة المستقلة التي كان يحياها . وكان العمل يسير في ما تبقى بطريقة ماء ، وكان يتكفل بالعجز الاتفاقي ، مضيفاً بلا تأنيب ضمير ، هذه الضريبة الى حريته العميقة . كان حسبه بالفعل ان يقدم للعالم وجهاً يستطيع ان يفهمه ، ويضطلع الكسل والجبن بالباقي . إن الاستقلال يُكتسب

بعض كلمات رخيصة من كلام الاعتراف. ثم اهتم مرسو فيما بعد بمصير لوسيان .  
لم يكن لها اهل ، وكانت تعيش وحدها . وكانت سكرتيرة في متجر  
لللحم ، وكانت تقتات بالفاكهة وتقوم بالرياضة البدنية . وقد اعارها مرسو  
كتباً فأعادتها اليه من غير ان تقول شيئاً . وكانت تجيب على اسئلته . بقولها :  
« نعم نعم . انها جيدة » . او : « هذا حزين بعض الشيء » . وفي اليوم الذي  
قرر فيه أن يغادر مدينة الجزائر ، عرض عليها ان تعيش معه ، على ان تقيم في  
مدينة الجزائر من غير ان تعمل ، وان توافيه عندما يكون بحاجة اليها . قال  
ذلك باقتناع كاف لكي لا ترى لوسيان في الأمر اي شيء مذل ، والحق انه  
لم يكن فيه اي شيء مذل . وغالباً ما كانت لوسيان تلاحظ يحسدها ما كان  
فكرها يعجز عن فهمه ، فقبلت . وأضاف مرسو :

— اذا كنت حريصة على ان تتزوجي ، فباستطاعتي ان أعدك بالزواج  
منك . ولكن ذلك لا يبدو لي مفيداً .

قالت لوسيان :

— كما تشاء .

بعد اسبوع ، كان يتزوجها وينتهي للذهاب . وفي أثناء ذلك اشترت لوسيان  
لنفسها قارباً برتقالي اللون لتذهب الى البحر الأزرق .

وتجنب مرسو، بضربة مقود، دجاجة صباحية . كان يتذكر حديثاً كان قد  
أجراه مع كاترين . وكان قد غادر « البيت أمام العالم » عشية يوم السفر ليضي  
ليلة وحيداً في الفندق .

كان ذلك في أول العصر ، ولما كانت الدنيا قد امطرت في الصباح ،  
فان الجون كان بأكمله كزجاج مغسول ، والسياء كغسيل رطب . وبالمواجهة  
تماماً ، كان الرأس الذي كان ينهي دائرة الجون يرسم بتقاء عجيب ، وكان

يتمدد مذهباً شعاع الشمس ، أشبه بحية صيف كبيرة . وكان باتريس قد انتهى من استعدادة للسفر ، وكان الآن ، وذراعاه على قائمة واجهة النافذة ، ينظر بنهم إلى هذه الولادة الجديدة للعالم .

— لا أفهم لماذا تذهب ، ان كنت سعيداً هنا .

هذا ما كانت كاترين قد قالت له .

— انني أخشى أن أحب هنا ، يا صغيري كاترين ، وهذا سيمنعني من أن أكون سعيداً .

كانت كاترين ملتفة على نفسها على الأريكة ، منخفضة الرأس بعض الشيء ، وكانت تنظر باتريس بنظرها الجميل الخالي من العمق . وقد قال من غير أن يلتفت :

— كثير من الرجال يعقبون وجودهم ويخترعون لأنفسهم مصائر . أما أنا ، فالأمر عندي بسيط ، انظري .

كان يتكلم بمواجهة العالم ، وكانت كاترين تحس نفسها منسية . كانت تنظر الى أصابع باتريس الطويلة والمتدليلة عند طرف ساعده المطوي على قائمة النافذة ، وإلى طريقتة في إسناد جسده على جانب واحد ، وإلى نظره الثائه الذي كانت تحزره من دون أن تلحظه .

قالت :

— ما أؤده ...

ولكنها سكنت ، ونظرت إلى باتريس ، كانت أشمعة صغيرة قد بدأت في عبور البحر منتهزة فرصة الهدوء . كانت تبلغ المضيق فتملأه بحفقات الأجنحة ثم ، فجأة تحول جريها نحو عرض البحر ، يرافقها غر من الهواء والماء كان يتفتح بارتعاشات طويلة مزبدة . ومن مكانها ، وبقدر ما كانت تقترب الاشمعة من البحر ، كانت كاترين تراها ترتفع حول باتريس كرفيف طيور بيضاء . وبدأ



أنه يحس صمتها ونظرها ، فالتفت ، وأمسك بيديها وضما إليه .  
— لا تراجعى ، أبداً ، يا كاترين . انك تملكين الكثير من الأشياء في نفسك ،  
وانبليها جميعاً حسن السعادة : لا تنتظري الحياة فقط من رجل بسبب ذلك .  
تخطيء الكثيرات من النساء . ولكن انتظريها من ذاتك .

قالت كاترين يهدوء وهي تأخذ كتف باتريس :  
— إنني لا اشتكى ، يا مرسو . هناك شيء واحد مهم الآن . اعن نفسك .  
وأحس إذ ذاك كم كان يقينها يستند على قليل من الأشياء ، وكان قلبه جافاً  
بطريقة غريبة .

— كان عليك ان لا تقولي ذلك الآن .

وتناول حقيبته وهبط في بادية الأمر السلم الواقف ثم سلك الطريق  
المبتدئ من شجرات الزيتون حتى شجرات الزيتون . ولم يكن شيء ينتظره بعد  
سوى الشنوة ، غابة في الخرائب والأبست ، وحب بلا أمل ولا يأمن ترافقه  
ذكرى حياة من الخل والورود . والتفت فوق ، كانت كاترين تنظر اليه يرحل ،  
بلا حراك .

وبعد أقل من ساعتين بقليل وصل مرسو مقابل شنوة . في هذه اللحظة  
كانت أضواء الليل البنفسجية الأخيرة ما تزال تنسحب على منحدراتها التي كانت  
تغطس في البحر بينما كانت للقمّة تشع بالأضواء الحمراء والصفراء . كان هناك ما  
يشبه اندفاعاً قوياً وكثيفاً للأرض ينطلق من منحدرات السهل التي كانت ترتسم  
جانباً عند الأفق ، لتنتهي عند هذا الظهر الضخم للحيوان العاقل الذي يغطس  
في البحر بقامته كلها .

وكان البيت الذي اشتراه مرسو يرتفع عند آخر المنحدرات على ارتفاع ما  
يقرب من مئة متر عن البحر الذي كانت قد ذهبته الحرارة . لم يكن يتكون إلا  
من طابق واحد فوق الطابق الأرضي ، وفي هذا الطابق لم يكن ثمة سوى غرفة

واحدة مع قوابعها . ولكن هذه الغرفة كانت واسعة ، كانت تنفتح على الحديقة الأمامية ، ثم على البحر يجون رائع مطوّل بسطيجة وقد صعد مرسو اليه بسرعة . كان البحر قد بدأ يرسل بخاره ، وفي آن واحد أخذت زرقته تزداد دكنة ، بينما كانت حمرة بلاطات السطيجة الحارة تكتسب إشراقته ولمعانه . وكان الدرايزون المملط يتيح لأول أزهار شجرة ورد رائحة معرّشة أن تتسلل خلاله . كانت الورود بيضاء ، أما التي كانت مفتحة ، متفرقة على البحر ، فقد كان في صلابتها لها ما هو مشبع وخصب . ومن غرف الطابق الأسفل ، كانت احداها تطل على أول منحدرات الشنوة ، الملوّءة بالأشجار المثمرة ، بينما تطل الغرفتان الأخريان على الحديقة ، وعلى البحر . وفي الحديقة ، كانت شجرة صنوبر تقذفان في السماء جذعيهما اللامتناهين اللذين تغطي طرفيهما فقط فروة مصفرة وخضراء . ومن البيت لم يكن المرء يستطيع ان يرى إلا الفضاء المسجون بين هاتين الشجرتين وانحناء البحر بين الجذعين . في هذه اللحظة على الأقل ، كان بخار خفيف ير في عرض البحر ، وقد نظر مرسو اليه أثناء الرحلة الطويلة التي قطعها من صنوبرة إلى أخرى .

هنا كان سيعيش . وكان جمال هذه الأماكن يؤثر بلا شك على قلبه . لأجلها أيضاً كان قد اشترى هذا البيت . ولكن الراحة التي كان قد أمل أن يجدها هنا كانت تخيفه الآن . وهذه الوحدة التي كان قد بحث عنها بهذا القدر من الوضوح كانت تبدو له أشد إقلاقاً ، لا سيما وأنه الآن كان يعرف إطارها . لم تكن القرية بعيدة بل كانت على بعد بضعة مئات من الامتار . وخرج . كان درب صغير يهبط من الطريق نحو البحر . وإذا دلف اليه ، لاحظ لأول مرة انه كان بالامكان رؤية رأس تبارزا الصغير ، من الناحية الأخرى للبحر . على طرف هذا الرأس ، كانت أعمدة المعبد المذهبة تتقاطع ، ومن حولها الخرائب المندثرة بين اشجار الأبنست التي كانت تشكل ، على مسافة ما ، فروة رمادية وصوفية . وفكر مرسو بأن الريح ، في أمسيات حزيران ، لا بد من ان تحمل إلى شنوة ،

عبر البحر ، العطر الذي كانت تفيض به أشجار الأبنست المفعمة بالشمس .

كان عليه ان يجهز مسكنه وينسقه . وقد مضت الأيام الأولى بسرعة : طلى الجدران بالكلس ، واشترى بسطاً من مدينة الجزائر ، وأعاد التمديد الكهربائي . وفي هذا العمل المتقطع في النهار بالوجبات التي كان يتناولها في مطعم الضيعة وبحمامات البحر ، كان ينسى لماذا أتى إلى هنا ، وكان يتوزع في تعب جسده ، مجوف الكليتين ، متصلب الساقين ، مهموماً من نقص الدهان أو من التركيب الفاسد لمفصلة في الممر . وكان ينام في الفندق ويتعرف شيئاً فشيئاً على الضيعة : الصبيان الذين كانوا يأتون بعد ظهر الأحد ليلعبوا بالبليار الروسي والبنغ - بونغ . ( كانوا يمتثلون الألعاب بعد الظهر كله ، ولم يكونوا يتناولون إلا طلباً واحداً ، مما كان يثير غيظ صاحب الدكان ) ؛ والبنات اللواتي كن يتزهن مساء على الطريق التي كانت تشرف على البحر ( كن يتماسكن بالاذرع وكانت اصواتهن تغني قليلاً على المقاطع الاخيرة للكلمات ) ؛ و «بيريز» الصياد الذي كان يزود الفندق بالسلمك ولم تكن له إلا ذراع واحدة ، وهناك أيضاً التقى بطبيب القرية ، برنار . ولكن في اليوم الذي تم فيه ترتيب كل شيء ، نقل مرسو إلى المنزل حوائجه ، ورجع بعض الشيء إلى نفسه . وكان ذلك في المساء . كان في غرفة الطابق الأول ، وخلف النافذة كان عالمان يتنازعان الفضاء بين الصنوبرتين ، وكانت النجوم في احدهما ، المائل إلى الشفافية ، تسكاثر . وفي الآخر ، الأكثر كثافة وسواداً ، كان خفقان ماء خفيفة يشتر بالبحر .

حتى ذلك الحين كان قد عاش في حالة الاستبداد ، ملتقياً بالعمال الذين كانوا يساعدونه أو مثيراً مع صاحب المقهى ، ولكن في ذلك المساء وعى انه لم يكن ثمة أحد يلقاه ، لا غداً ولا أبداً ، وانه كان وجهاً لوجه مع الوحدة التي طالما تنماها . ومنذ اللحظة التي كان عليه ان يلقى فيها أحداً ، بدا له اليوم التالي قريباً بشكل مريع . بيد أنه أقنع نفسه بأن هذا هو ما سبق له ان اراده : هو امام نفسه ولوقت طويل وحتى النهاية . وصمم على ان يظل يدخن ويفكر حتى ساعة

متأخرة في الليل . ولكنه حوالي الساعة العاشرة أخذه النعاس فنام . في اليوم التالي استيقظ متأخراً جداً ، عند العاشرة تقريباً ، فهبأ فطوره وتناولوه قبل ان يأخذ زينته . كان يحس نفسه تعباً بعض الشيء . ولم يكن قد حلق ذقنه وكان شعره مبعثراً . ومع ذلك ، فانه ، بعد أن أكل ، وبدلاً من ان يدلف إلى الحمام ، تاه من غرفة إلى أخرى ، مقلباً أوراق مجلة ، وأحس أخيراً انه سعيد إذ وجد عاكساً للتيار الكهربائي متديلاً من الحائط فباشر العمل . وطرق الباب . وكان هو صبي الفندق الصغير الذي كان يحضر له غداءه كما سبق ان اتفق معه البارحة . وكما كان ، وبكسل ، جلس الى الطاولة ، وأكل من غير شهية قبل ان تبرد الصحنون ، وأخذ يدخن ، متمدداً على أريكة غرفة الطابق الاسفل . عندما استيقظ ، غاضباً لكونه قد نام ، كانت الساعة الرابعة . وإذ ذاك هندم نفسه ، وحلق بعناية ، ثم ارتدى ثيابه وكتب رسالتين ، احدهما للوسيان والاخرى للتلميذات الثلاث . كان الوقت إذ ذاك متأخراً جداً ، وكان الليل يهبط ، ومع ذلك ، فقد ذهب حق القرية ليلقي رسائله في البريد ، وعاد من غير أن يكون قد التقى أحداً . وصعد إلى غرفته ، ثم خرج الى السطحة . كان الليل والبحر يتحاوران على الساحل الرملي وفي الخرائب .

وكان هو يفكر . وكانت ذكرى هذا اليوم الضائع تسممه . وذلك المساء ، على الأقل ، كان يريد ان يشغل ، ان يعمل شيئاً ما ، ان يقرأ أو يخرج ليمشي في الليل . وصرّ حاجز الحديقة المشبك : هذا عشاؤه يصل . كان جائعاً فأكل بشهية ، وأحس نفسه عاجزاً عن الخروج . وقرر أن يقرأ طويلاً في السرير . ولكن عينيه أغلقتا عند الصفحات الأولى ، وفي اليوم التالي استيقظ متأخراً .

في الأيام التالية ، حاول مرسو ان يقاوم هذا الاجتياح . وبقدر ما كانت الأيام تمر ، بليئة كلها بصريير الحاجز المشبك واللفائف التي لا تمتد ، كان القلق يأخذ به وهو يقدر التفاوت بين الحركة التي كانت قد قادته إلى هذه الحياة

وهذه الحياة نفسها . وذات مساء ، كتب للوسيان يدعوها قاطعاً بهذه الطريقة الوحدة التي طالما كان ينتظرها . عندما ذهبت الرسالة ، كان خبيل قد افترسه ، ولكن عندما وصلت لوسيان ، ذاب هذا الخبيل في نوع من الفرح الأبله المتعجل اجتاحه وهو يرى كائناً مألوفاً ، ويرى الحياة المريحة التي كان حضوره ينطوي عليها . وأخذ يهتم بها ، وييدي حفاوة كبيرة ، وكانت لوسيان تنظر اليه بشيء من الدهشة ، ولكنها كانت دائماً منهمكة بفساتينها من الكتان الأبيض المكوّنة جيداً .

وبعدها خرج الى القرية ، ولكن مع لوسيان . واستردّ تواطؤه مع العالم ، ولكن وهو يضع يده على كتف لوسيان . وحين لاذ بالانسان فيه ، كان يهرب من خوفه الخفي . ومع ذلك ، فبعد يومين كانت لوسيان تضجّره . وقد اختارت هي هذه اللحظة بالذات لتطلب اليه ان تعيش بالقرب منه . كانا يتناولان العشاء ، وكان مرسو قد رفض بوضوح من غير ان يرفع عينيه عن صحنه .

وبعد لحظة صمت ، كانت لوسيان قد أضافت بصوت محايد :

— انت لا تحبني .

فرفع مرسو رأسه . كانت عيناها مليئتين بالدموع . ورق لها :

— ولكنني لم أقل ذلك أبداً ، يا صغيرتي .

قالت لوسيان :

— هذا صحيح ، وهذا هو السبب .

ونفض مرسو ، فسار نحو النافذة . بين شجرتي الصنوبر ، كانت النجوم تتكاثر في الليل . ربما لم يسبق لباتريس قط أن أحسّ في قلبه ، وفي آن واحد ، بقلقه وبمثل هذا التقزز من الأيام التي انقضت . وقال :

— انت جميلة يا لوسيان . إنني لا أرى أبعد من ذلك . ولا اطلب منك  
اكثـر من هذا . ان ذلك يكفينـا نحن الاثنين .

قالت لوسيان : — أعرف ذلك .

وكانت توليه ظهرها ، وكانت تحكّ الخوان ، بجـد سكينها . وقد أقبل  
عليها وأمسكها من رقبتها :

— صدّقيني ، ليس هناك ألم كبير ولا ندامات كبيرة ولا ذكريات كبيرة .  
كلّ شيء ينسى ، حتى الحب الكبير . هنا يكمن كل ما في الحياة من حزين  
ومثير في وقت معاً . هناك فقط طريقة ما في النظر الى الأشياء ، وهي تنبعث  
من وقت الى آخر . من أجل ذلك يستحسن ، بالرغم من كل شيء ، ان يكون  
المرء قد عرف حباً كبيراً ، او عاطفة شقيّة في حياته . هذا يخلق على الأقل  
ذريعة للباس الذي لا مبرر له والذي نحن تحته رازحون .

وبعد فترة ، فكر مرسو وأضاف :

— لا أدري ان كنت تفهميني .

قالت لوسيان :

— اعتقد انني افهم .

وأدارت فجأة رأسها نحوه :

— انت لست سعيداً .

قال مرسو بعنف :

— سأكون سعيداً . يجب ان أكونه . بفضل الليل وهذا البحر وهذه  
الرقبة تحت أصابعي .

وكان قد اتجه نحو النافذة ، وشدّ يده على رقبة لوسيان . وكانت تلتزم

الصمت . ثم قالت من غير ان تنظر اليه :

— إنك على الأقل ، تكن لي بعض الصداقة ؟

ركع مرسو أمامها وهو بعض كتفها :

— صداقة ، نعم ، كما أكن صداقة لليل . انك فرحة عيني ، وانت لا تعلمين اي مكان يمكن ان تحتله هذه الفرحة في قلبي .

وذهبت في اليوم التالي . وفي اليوم الذي تلاه ، كان مرسو ، وقد عجز عن ان يأكل مع نفسه ، يصل الى مدينة الجزائر بالسيارة . وقد ذهب أولاً الى « البيت أمام العالم » . ووعده صديقاته بان يذهبن لرؤيته في اواخر الشهر نفسه . واراد اذ ذاك ان يعود الى حيه .

كان بيته قد أجزر لصاحب مقهى . واستخبر عن البراميلي فلم يستطع أحد افادته . كانوا يعتقدون انه ربما كان قد ذهب الى باريس بحثاً عن عمل . وتزده مرسو . وفي المطعم ، كان سيليست قد شاخ — قليلاً . وكان رينه ما يزال هناك ، مع سله وهيشته الرزينة . وقد سعدوا جميعاً بان يروا مرسو من جديد ، وكان هو متأثراً بهذا اللقاء .

قال له سيليست :

— أوه ، يا مرسو ، انت لم تتغير !

قال مرسو : نعم .

كان يعجبه هذا الاصرار العجيب على ان يفرض الناس على اصداقائهم ، بالرغم من كونهم مطلعين اطلاقاً كبيراً على ما يتغير في ذواتهم ، الصورة التي كوتوها عنهم مرة الى الابد .

وبالنسبة له ، فقد كانوا يحكمون عليه وفقاً لما سبق ان كانه . وككلب

لا يغير من طباعه ، كذلك فان الناس هم كلاب في نظر الانسان . وبالقدر نفسه الذي كان فيه سيلبيست ورينه والآخرين قد عرفوه ، فقد كان يصبح بالنسبة لهم غريباً ومنغلقاً ككوكب غير مأهول . ومع ذلك ، فقد تركهم بصداقة . وبينما هو خارج من المطعم ، التقى ببارت . وإذا رآها ، وعى انه كان قد نسيها تقريباً وانه كان في الوقت نفسه يأمل ان يلقاها . لقد كان لها دائماً وجه الإلهة المرسومة . وقد اشتهاها خفية ولكن من غير اقتناع . وسارا معاً .

قالت له :

— أوه ، يا باتريس ، كم انا مسرورة . ماذا أصبحت ؟

— لا شيء . كما ترين . انني اسكن القرية .

— هذا رائع ! لقد حلمت انا دائماً بذلك

وبعد صمت ، قالت :

— أتعلم ؟ إنني غير حاقدة عليك .

قال مرسو وهو يضحك :

— نعم . لقد تعزيت .

وإذا ذاك اتخذت مارت لهجة لم يكن يعهدا فيها قط :

— لا تكن خبيثاً ، أتريد ذلك ؟ كنت اعرف جيداً ان هذا سينتهي هكذا يوماً ما . لقد كنت شخصاً عجيباً ، وانا لم اكن سوى فتاة صغيرة كما كنت تقول . وعندما حصل الأمر غضبت طبعاً . انت تفهم . ولكنني انتهيت الى ان أقول لنفسى انك كنت تعيساً . وهذا غريب . انني لا أعرف جيداً ان اعبر عن هذا ، ولكن هذه هي المرة الاولى التي أدرك فيها ان ميا كان حدث بيننا قد جعلني حزينة وسعيدة في آن واحد .



نظر إليها مرسو ، مندهشاً . كان يفكر فجأة بأن مارت كانت دائماً على علاقة طيبة جداً معه . كانت قد تقبلته على علاقته ، وكانت قد انتزعت من كثير من الوحدة . ولقد كان غير منصف . ففي الوقت نفسه الذي كان فيه خياله ، وزهوه قد منحها من القيمة اكثر مما ينبغي ، فان غروره لم يمنحها من هذه القيمة ما فيه الكفاية . كان يحس بأية مفارقة قاسية تُعذع دائماً مرتين بالأشخاص الذين يحبهم ، لصالحهم أولاً ولغير صالحهم فيما بعد . وهو يدرك اليوم ان مارت قد كانت طبيعية معه - وانها قد كانت ما كانته ، وبهذه الصفة كان مديناً لها بالكثير . كانت الدنيا تطر رذاذاً ما يكفي بالضبط لمضاعفة أضواء الشارع وتبيديها . وعبر نقط الأنوار والمطر ، كان يرى وجه مارت الجاد فجأة فيحس نفسه مأخوذاً بعرفان مضطرب لم يكن يتوصل للتعبير عن نفسه ، عرفان كان بإمكانه ، في أوقات اخرى ، ان يعتبره نوعاً من الحب . ولكنه لم يعرف ان يجد إلا كلمات مسكينة ، فقد قال لها :

— انت تعلمين ، انني احبك كثيراً ! والآن ايضاً ، لو كنت استطيع شيئاً ..

ابتسمت له ، وقالت :

— لا . انني شابة : وإذن فانني لا أحرم نفسي .

وأوماً موافقاً . منه إليها ، أيّ بُعد كان بينها واي تفاهم خفيّ ، في آن واحد .. وتركها امام بيتها . وكانت قد فتحت مظلتها . قالت :

— آمل ان نلتقي .

قال مرسو : « نعم » .

وابتسمت ابتسامة صغيرة حزينة . قال مرسو :

— أوه . ان لك الآن وجه الفتاة الصغيرة .

كانت قد انسحبت تحت الباب واغلقت مظللتها . ومدت لها باتريس يده  
وابتسم بدوره :

— الى اللقاء ، يا تجلّ .

وشدت عليها بسرعة ، وفجأة قبلته من وجنتيه ، وصعدت السلم  
وهي تركض . وظل مرسو تحت المطر ، وكان ما يزال يحس على وجنتيه انف  
مارت البارد وشفتيها الحارّتين .

وتلك القبلّة الفجائية المتجرّدة ، كان لها التقاء كله الذي كان لقبلّة بغّي فيينا  
الصغيرة ذات النمش .

ومع ذلك ، فقد ذهب للملاقة لوسيان ، ونام عندها . وفي اليوم التالي  
طلب منها ان يسيرا على البولفار . كانت الساعة تقارب الظهر عندما هبطا .  
وكانت اصداق وردية تجف في الشمس كثمار مقسمة الى حصص . وهبط  
طيران مزدوج للحمام واظلال الحمام نحو المراقىء ليصعد في الحال بانحناءة  
بطيئة . وكانت الشمس المتألقة تدقيء بعدوبة . وكان مرسو ينظر الى ناقل  
البريد الاحمر والاسود يخرج على مهل من المضيق البحري فيزيد من سرعته ثم  
ينعطف نحو حاجز النور الذي كان يزيد عند التقاء السماء والبحر . ان في كل  
رحيل ، بالنسبة للانسان الذي يشاهد رحيلاً ، عدوبة مرّة . قالت لوسيان :  
— انهم محظوظون .

فقال باتريس « نعم » وكان يفكر « لا » ، او أنه كان على الاقل لا يحسدهم  
على هذا الحظ . صحيح ان الاستنافات ، والرحلات ، والحيوات الجديدة كانت  
بالنسبة اليه ايضاً ، تحتفظ بجاذبيتها ، ولكنه كان يعلم ان السعادة لا تتعلق بها الا في  
ذهن الكسالى والعاجزين . كانت السعادة تفترض اختياراً ، ودخل هذا  
الاختيار إرادة مدبرة وواعية . كان يسمع صوت زغرو : « ليس بارادة  
الرفض ، ولكن بارادة السعادة » .

كانت ذراعه تحيط لوسيان ، وفي يده كان يستريح نهد المرأة الدافئة اللدن .

في المساء نفسه ، وفي السيارة التي كانت تعيده الى شنوة ، كان مرسو يحسّ أمام انتفاخات المياه والروابي المنبعثة فجأة ، بصمت كبير في ذاته . وكان في تصنعه بعض الاستنفافات ، وفي وعيه لحياته الماضية ، قد حدد في ذاته ما كان يريد وما كان لا يريد أن يكونه . وهذه الأيام من التشتت التي كانت قد أخطلته كان يعتبرها خطرة ، ولكن ضرورية ، وكان من الممكن أن يفرق فيها ويفوت إذ ذاك تبريره الوحيد . ولكن كان عليه أيضاً أن يتلام مع كل شيء .

وبين ضربتي كايح ، كان مرسو متشبهاً بهذه الحقيقة ، التي تُفجّل والتي لا تقدر بثمن في الوقت نفسه ، حقيقة أن السعادة الفريدة التي يبحث عنها كانت تجد شروطها في اليقظات الصباحية ، والحمامات المنتظمة ، وسلامة الصحة الواعية . كان ينطلق مسرعاً جداً ، مصمماً على ان يستفيد من انطلاسته ليستقر في حياة لن تتطلب منه فيما بعد أية جهود ، ليؤلف تنفسه مع الايقاع العميق للزمن والحياة .

وفي صباح اليوم التالي نهض باكراً ونزل نحو البحر . كان البحر إذ ذاك في تمام إشرافه ، وكان الصبح محملاً باختلاجات أجنحة وزقزقة عصافير . ولكن الشمن كانت تلامس فقط الخنائة الافق ، وعندما دخل مرسو في الماء الذي كان يعدّ بلا لمان ، خيل اليه أنه يسبح في ليل حائر ، حتى إذا ارتفعت الشمس ، غطّس ذراعيه في مساكب من الذهب الاحمر المثلج . وفي هذه اللحظة عاد ، ودخل بيته ، وأحس جسده خفيفاً ومستعداً ان يتلقى كل شيء . وفي الصباحات التي تلت ، كان ينزل قبيل بزوغ الشمس .

وكانت هذه الحركة الأولى تتحكم في باقي نهاره . والحق ان هذه الاستحمامات كانت تتبعه ، ولكنها كانت في الوقت نفسه ، بما كانت تخلّفه له من ضعف ومن طاقة ، تمنح يومه كله مذاقاً من الاستسلام والتعب السعيد . ومع ذلك ،

فقد كانت نهاراته تبدو له طويلة ما تزال . لم يكن قد حل وقته بعد من هيكمل عادات كان يتخذها كصوى ومعالم . لم يكن لديه ما يفعله ، وكان وقته يأخذ بالتالي كل امتداده . كانت كل دقيقة تجد قيمتها الأعجوبية ، ولكنه لم يكن يتعرف عليها بعد بهذه الصفة . وكما كانت الأيام في السفر ، تبدو لا نهاية لها ، بينما كان انقضاء الفترة في المكتب بين الاثنين والأثنين يتم بلحظة عين ، كذلك فانه ، وقد حرم من ركائزه ، كان يحاول ان يستعيد في حياة لم يكن فيها مع ذلك ما يفعله . كان أحياناً يمسك ساعة وينظر إلى العقرب وهو ينتقل من رقم إلى آخر ، فيذهله ان تبدو له خمس دقائق وقتاً لا ينتهي . وبما لا شك فيه ان هذه الساعة قد فتحت له الطريق الشاق المذهب الذي يقود إلى الفن الأعظم : فن عدم القيام بشيء . وتعلم ان يتنزه . وعند العصر ، كان أحياناً يسير بمحاذاة الشاطئ، حتى الحرائب على الطرف الآخر ، وكان يرقد عندها في الأبسنت ويده على حرارة حجر ، وكان يفتح عينيه وقلبه على عظمة هذه السماء المنحونة بالحرارة ، تلك العظمة التي لم تكن لتحتمل . وكان يؤلف نبضات دمه مع نبضات الشمس العنيفة عند الساعة الثانية ، وإذ يكون غاطساً بين الروائح المتوحشة وموسيقى الحشرات الناعسة ، فانه ينظر إلى السماء تنتقل من الأبيض إلى الأزرق الصافي ، لتهوي فيما بعد حتى اللون الأخضر وتفرغ غدويتها وحناها على الحرائب التي ما تزال حارة . إذ ذاك كان يعود باكراً وينام . وفي هذا السباق من شمس إلى شمس أخرى ، كانت أيامه تنتظم وفق ايقاع أصبح بطؤه وغرابته ضروريين بالنسبة له ضرورة مكتبه ومطعمه ونومه في الماضي . وفي الحالين كليهما كان لا واعياً تقريباً . اما الآن فقد كان على الأقل ، في ساعات صفائه ، يحس ان الوقت كان ملكه ، وانه في هذه اللحظة القصيرة التي تمتد ما بين البحر الأخضر والبحر الأزرق ، كان شيء أبدي يتمثل له في كل ثانية .

وليس أكثر من السعادة الفؤوشرية ، لم يكن يستشف أبدية خارج انحناء الأيام . كانت السعادة بشرية والأبدية يومية . وكان كل شيء يكمن في ان يعرف

الانسان أن يتواضع وان ينظم قلبه مع ايقاع الأيام ، بدلاً من أن يحني ايقاعها وفق انحناء أملنا .

وكما أنه ينبغي معرفة التوقف في الفن ، وأن لحظة ما تأتي دائماً ينبغي فيها لمنحوتة ما ان لا تُمس بعد ، وان رغبة في الغناء تخدم فنانا ، بهذا الصدد ، أكثر من أشد وسائل التبصر إرهافاً ، كذلك لا بد من حد أدنى من الغناء لاستكمال السعادة لحياة ما .

من جهة أخرى ، كان مرسو يلعب البليار يوم الاحد ، مع بيريز . كان بيريز اكتع . وكانت ذراعه المبتورة مقطوعة فوق الكوع . وهكذا كان يلعب بطريقة غريبة ، فكان يكوّر جذعه ويسند جذعته على طرفها . وعندما كان مرسو يذهب ليصطاد صباحاً ، كان يعجب دائماً ببراعة الصياد الشيخ الذي كان يسك مجذافه الايسر تحت ابطه ويقف منتصباً في المركب ، وجسمه مائل فيدفع احد المجذافين بصدوره والآخر بيده . وكان كلاهما متقاهمين الى أبعد حد . وكان بيريز يصنع الجبار بمرقة لاذعة ، فكان يطحنها بعصيره . وكان مرسو يتقاسم معه المرققة السوداء الملتببة التي كان كلاهما يغمسها بالخبز في مقلاة مليئة بالشعير في مطبخ الصياد . ولم يكن بيريز ، من جهته ، يتكلم ابداً . وكان مرسو معترفاً له بقدرته على الصمت . وكان أحياناً ، عند الصباح ، بعد الحمام ، يراه وهو يلقي مركبه في البحر ، فكان يتقدم إذ ذاك قائلاً :

— هل اذهب معك يا بيريز ؟

وكان الآخر يقول : — اركب .

وإذ ذاك كانا يضعان المجذافين على ممسكين مختلفين ويحذفان معاً محاذرين ( مرسو على الأقل ) ان يربكا أقدامهما بصنانير الجبال . ثم كانا يصطادان ، وكان مرسو يراقب الخيوط اللامعة حتى سطح البحر ، متموجة وسوداء تحت

الماء . كانت الشمس تتكسر على الماء ، ألوفاً من الشظايا ، وكان مرسو يستنشق رائحة ثقيلة خائفة كانت تصدر من البحر كأنها تنفّس . وكان بيريز أحياناً يخرج سمكة صغيرة . فكان يرميها للحال قائلاً : « اذهبي الى أمك ! » وعند الحادية عشرة كانا يعودان ، فكان مرسو ، ويداه ملتصقتان بالقشور ، ووجهه منتفخ بالشمس ، يرجع الى منزله كما لو انه يدخل قبواً رطباً ، بينما كان بيريز يذهب ليهيء طبقاً من السمك كانا يأكلانه معاً عند المساء . ويوماً بعد يوم ، كان مرسو يمضي في حياته كما كان يمضي في الانزلاق على الماء . ولما كان الانسان يتقدم بفضل مشاركة الذراعين والماء الذي يحمل وينقل ، فقد كان يكفيه بعض الحركات الرئيسية ، يد على جذع شجرة او ركض على شاطئه ، ليتأسك كاملاً وواعياً : هكذا كان يدرك حياة في حالتها النقية ، وكان يسترد نعيماً لم يكن يوهب إلا لأكثر الحيوانات حرماناً من الذكاء أو أكثرها هبة منه . وعند هذا الحد الذي ينكر فيه الفكر الفكر ، كان يلامس حقيقته ومعها مجده وحبه الأقصيين .

وبفضل برنار ايضاً ، كان يمتزج بحياة القرية . لقد كان مضطراً الى استدعائه بسبب وعكة بسيطة ، ثم تقابلا فيما بعد وغالباً بسرور . كان برنار صموئلاً ، ولكن صمته كان مصحوباً بنوع من الفكر المرير كان يضيفي اشاعات في نظارتيه المقشّرتين . كان قد مارس مهنته طويلاً في الهند الصينية ثم انسحب في الأربعين الى هذا الركن من الجزائر . وهو منذ بضع سنين يمضي فيها حياة هادئة مع امرأته ، وهي هندية صينية شبه خرساء ، ذات شعر مرفوع على شكل كعبيكة وثوب عصري . وكان برنار ، بفضل قدرته على التسامح ، يتألف مع جميع الاوساط . وبهذا كان يحب القرية كلها وكان محبوباً منها . وكان يرافق مرسو اليها .

كان مرسو يعرف جيداً مدير الفندق ، وهو صادق قديم كان يقضي عند مكتبه ، وبين مقطعين من « التوسكا » كان يعد امرأته بضربة . وقد طلب من باتريس ان يشارك مع برنار في لجنة الاعياد .

وفي أيام الأعياد ، ١٤ تموز أو غيرها ، كانا يتنزهان وعلى الذراع ساعدة ذات ثلاثة ألوان أو كانا يتناقشان مع بقية الاعضاء ، حول طاولة من الكتان الأخضر لزجة بالمقبلات السكرية ، إذا كانت منصة الموسيقيين محاطة بشجر المضاض أو سعف النخل . بل لقد أرادوا ان يجروه يوماً الى صراع انتخابي ، ولكن مرسو كان قد اتيح له ان يعرف المختار ، وكان « يشرف على مصائر بلده » ( كما كان يقول ) منذ عشر سنين . وشبه الخلود هذا كان يحذو به الى ان يظن نفسه نابليون بونابرت . كان كراماً قد أفرى حديثاً ، فبنى لنفسه بيتاً على الطراز اليوناني . وكان قد دعا اليه مرسو ، وكان يتألف من طابق ارضي يعملوه طابق . ولكن المختار لم يكن يتراجع امام اية تضحية ، فكان ان زوده بمصعد . وقد جعل مرسو وبرنار يجربانه ، فقال برنار بهدوء : « انه ينزل جيداً » . ومنذ ذلك اليوم ، أكن مرسو اعجاباً عميقاً للمختار . وكان هو وبرنار يستعملان تأثيرهما بكامله لكي يبقياه في الوظيفة التي كان يستأهلها بفضل كثير من المزاي .

وفي الربيع كانت القرية ذات السقوف الحمراء المتقاربة ، بين الجبل والبحر ، تعود فتختنق بالزهور والورود والجنينات المعترشة وبطنين الحشرات . وفي ساعة القيلولة ، كان مرسو يدلف الى سطيحته وينظر الى القرية تمام وترسل بخارها تحت الاشعة الفائضة . وكان تاريخ القرية يكمن في الخصام بين موراليس وبنغيس ، وهما معمران اسبانيان ثريان ، كانت سلسلة من المضاربات قد حولتهما الى مليونيرين . ومنذ تلك اللحظة ، كانت حمى العظمة قد امتلكتها . فعندما كان احدهما يشتري سيارة ، كان ينتقي أغلاها ثمناً . ولكن الآخر الذي كان يشتري مثلها كان يضع عليها مقابض من الفضة . وكان المبقرى في هذه الحالة هو موراليس الذي كانوا يطلقون عليه لقب « ملك اسبانيا » ذلك انه في كل شيء ، كان قد انتصر على بنغيس الذي كان يفتقر الى الخيال .

ففي اليوم الذي اكتب فيه بنغيس ، اثناء الحرب ، بعدة مئات من آلاف الفرنكات للقرض الوطني ، صرح موراليس بقوله: « أنا أفعل احسن ، انني اعطي ابني » . وجند ابنه الذي كان ما يزال صغيراً ... وفي عام ١٩٢٥ ، كان بنغيس قد وصل من مدينة الجزائر بسيارة سباق فخمة من طراز « بوغاتي » . وبعد خمسة عشر يوماً ، كان موراليس قد بنى لنفسه مرأباً واشترى طائرة « كودرون » وكانت هذه الطائرة ما تزال ترقد في مرأبها .

يوم الاحد فقط كانوا يعرضونها امام الزوار. وعندما كان بنغيس يتحدث عن موراليس كان يقول : « هذا العاري - القدمين » وكان موراليس يقول عن بنغيس : « قمينة الجير هذا » .

واصطحب برنار مرسو الى بيت موراليس ، فاستقبلها هذا في المزرعة الكبيرة المليئة بالزناجير وبروائح العنب ، استقبالا مطبوعاً بكل دلائل الاحترام ، ولكنه كان يلبس حذاء الرياضة وقميصاً قصير الاكمام ، لأنه لم يكن يستطيع تحمل السترة والحذاءين . وقد عرض عليها الطائرة ، والسيارات ، ومدايلة الابن المؤطرة والمعروضة في الصالون . واخذ موراليس يشرح لمرسو ضرورة إبعاد الاجانب عن الجزائر الفرنسية ( كان هو متجنساً « اما بنغيس ذاك ، مثلاً » ) ثم قادها الى اكتشاف جديد - فدخلوا حقلاً واسعاً للعنب اقيمت في وسطه مستديرة. وفي هذه المستديرة تُصَفّ طقم من طراز لويس الخامس عشر ، صنع بأفخر الخشب والقماش . وهكذا كان موراليس يستطيع ان يستقبل ضيوفه في أراضيه . وقد أجاب على مرسو الذي كان يستعلم بأدب عما كان يحدث في أوقات المطر ، اجاب موراليس من دون ان يهتز من فوق سيارته: « انني أستبدله » . وكانت العودات مع برنار تقضى إذ ذاك في تمييز الثري الكبير من الشاعر . فقد كان موراليس ، في نظر برنار ، شاعراً . وكان مرسو يفكر انه كان جديراً به ان يكون امبراطوراً رومانياً رائعاً في عهد الانحطاط .

وبعد فترة من هذا الوقت ، أتت لوسيان لتقضي بضعة ايام في الشنوة ثم



رحلت . وذات احد صباحا ، أتت كلير وروز وكاترين يرددن الزيارة لموسو كما كن قد وعدنه . ولكن باتريس كان الآن بعيداً جداً عن الحالة الفكرية التي كانت قد دفعته الى مدينة الجزائر في الأيام الاولى لعزلته . ومع ذلك فقد سعد لرؤيتهم من جديد . وقد ذهب لاصطحابهم مع برنار عند موقف الباص الكناري الكبير الذي كان يقوم بالخدمة . كان اليوم رائعاً ، والقرية مكتظة بعربات القصابين المتجولين الجميلة الحمراء وبالورود الكثيفة والناس المرتدين الوانا زاهية . وقد جلسوا لحظة في مقهى ، بنساء على طلب كاترين . كانت تتأمل باعجاب هذا اللق وهذه الحياة ، وخلف الحائط الذي كانت تستند اليه كانت تحزر وجود البحر . وفي لحظة الذهاب انفجرت موسيقى مذهلة في شارع قريب جداً . كان ، بلا شك ، «مارش التوريادور» في «كارمن» ، ولكنه كان من الصخب والحيوية بحيث انه كان يحول دون ان تحتفظ الآلات بدورها . قال برنار : «لأنه يجتمع الرياضة» . ومع ذلك فقد لوحظ انبثاق عشرين موسيقيا مجهولاً كانوا لا يكفون عن النفخ في الآلات الهوائية المختلفة ، ثم انبثق من خلفهم موراليس ، على رأسه قبعة قش مرتدة الى خلف وموضوعة على منديل ، فيما كان يترطب بمروحة دعائية . كان قد استأجر هؤلاء الموسيقيين من المدينة لأنه ، كما فسر ذلك فيما بعد ، بهذه الأزمة تبدو الحياة حزينة أكثر مما ينبغي . وقد جلس ورتب من حوله الموسيقيين الذين أنهموا لحن سيرهم . كان المقهى مكتظاً بالجمهور . إذ ذاك نهض موراليس ، وبحركة دائرية قال بوقار : «بناء على طلبي ، ستعزف الفرقة الموسيقية من جديد «توريادور» .

وكانت الحمقاوات الصغيرات ، عند ذهابهن ، يختنقن من الضحك . ولكن حين وصلن الى البيت ، في ظل الغرف التي كانت تحيل البياض المتألق للجدران المليئة بشمس الحديقة أكثر حساسية ، وجدن من جديد صمتاً وتجاوبا عميقا عبر عن ذاته ، عند كاترين ، بالرغبة في أخذ حمام شمسي على السطیعة . عند ذلك أعاد موسو برنار . وكانت هذه هي المرة الثانية التي كان برنار يطلع فيها

على شيء من حياة مرسو . ولم يسبق لها قط ان تكاشفا بشيء ، إذ كان مرسو يعني أن برنار لم يكن سعيداً ، وكان برنار حائراً بعض الشيء أمام حياة مرسو . وقد افترقا من غير ان يقولوا كلمة . واتفق مرسو مع صديقاته على الذهاب في رحلة صباح الغد الباكر . كانت الشنوة عالية جداً ، وكانت صعبة التسلق . وقد كان ثمة يوم جميل من التعب والشمس ينتظرم .

في الصباح الباكر ، تسلقوا المنحدرات الاولى القاسية . كانت روز وكلير تتقدما ، وكان باتريس يقفل المسيرة مع كاترين . كانوا صامتين . وكانوا يرتفعون شيئاً فشيئاً فوق البحر الذي كان ما يزال أبيض بين غيوم الصباح . وكان باتريس يلتزم الصمت ايضاً ؛ مندجماً كلياً بالجبل ذي القمة المملوطة المشعث بالسورنجان ، وبالينابيع المثلوجة ، وبالظل والشمس ، وبجسده الذي كان يوافق ثم يرفض . كانوا يلجون جهد السير المكثف ، ونسيم الصباح في رئاتهم كحديد عممي او موسى محددة ، مانحين انفسهم كلياً لهذه المثابرة ولهذا التفوق على الذات اللذين كانا يجهدان لينتصرا على المنحدر . واحست روز وكلير بالتعب ، فأبطأ سيرهما . فتقدمت كاترين ومرسو ، وما لبثا ان غابا عن نظرهما .

قال باتريس : « هل كل شيء على ما يرام ؟ »

قالت : « نعم . هذا جميل جداً » .

كانت الشمس ترتفع في السماء ، ومعها صرير حشرات كان يتفاقم مع الحرارة . وفيما بعد خلع باتريس قميصه ، وتابع طريقه عاري الصدر . كان العرق يسيل على كتفيه ، حيث كانت الشمس قد شالت قشارة الجلد . وسلكا طريقاً صغيرة كانت تبدو محاذية جنب الجبسل . وكانت الاعشاب التي كانا يسحقانها اكثر نداوة . وما لبث ان استقبلها صوت ينابيع وتدفق نداوة وظلال . ورش أحدهما الماء على الآخر ، وشربا قليلاً ، ثم تمددت كاترين على العشب ، بينما كان باتريس ، وشعره مسود من المساء ومشبك على جبينه يخفض عينيه أمام المشهد المغطى بالخرائب ، وبالطرقات اللامعة ويتألقات الشمس ، ثم

جلس قرب كاترين .

قالت كاترين :

— مرسو ، ما دمنا وحدنا ، قل لي ان كنت سعيداً ؟

قال مرسو :

— انظري .

كانت الطريق تهتز في الشمس ، وكانت طائفة كبيرة من البكتيريات المتعددة الألوان تصعد اليها . وكان باتريس يبتسم ويداعب ذراعيه .

— أردت فقط ان اسألك . وبالتأكيد ، فانك لن تجيب إن كان ذلك يزعجك .  
( وترددت ) هل تحب زوجتك ؟

ابتسم مرسو :

— ليس هذا من الضروري .

وأمسك بكثف كاترين ، ورش بالماء وجهها وهو يحني رأسه وأضاف يقول :

— الخطأ ، يا كاترين الصغيرة ، هو الاعتقاد بوجوب الاختيار ، بوجوب عمل ما نريده ، بان هناك شروطاً للسعادة . ان ما يهم فقط ، هو إرادة السعادة ، نوع من الوعي الهائل الحاضر ابدأ . أما الباقي ، النساء ، الأعمال الفنية أو النجاحات الدنيوية ، فليس إلا ذرائع . انه شبكة تنتظر تطريرزاتنا .

قالت كاترين وعيناها ملبثتان بالشمس :

— نعم .

— ان ما يعني انما هي صفة معينة للسعادة . انني لا استطيع ان أتذوق السعادة إلا في المواجهة العنيدة العنيفة التي تقوم بها مع نقيضها . تسأليني ان كنت سعيداً ؟ كاترين ! انك تعرفين القول المأثور : « لو كان علي أن أعيد

حياتي ، . فاني سأعيدها كما هي . وبالطبع ، لا يمكنك ان تعرفي ما يعنيه ذلك .  
قالت كاترين : لا .

— كيف أفسر لك ذلك ، يا صغيرتي . لئن كنت سعيداً ، فذلك  
بفضل احساسني بالخطأ . لقد كنت بحاجة الى الرحيل والى كسب هذه الوحدة  
التي استطعت فيها ان اواجه في نفسي ما كان ينبغي مواجهته ، ما كان شمساً  
وما كان دموغاً .. اجل ، انني ، بشرياً ، سعيد .

ووصلت روز وكلير ، فاستأنف الجميع السير . كان الطريق ما يزال يحاذي  
الجبل تاركاً إياهم في منطقة نباتية غزيرة . وكانت الطرق ما تزال محاطة  
بشجر الصبار والزيتون والعناب . وكانوا يلتقون بعرب يركبون حميراً . ثم  
صعدوا . كانت الشمس تصفع الآن بضربات محتدمة كل حجر في الطريق . وعند  
الظهر ، كانوا مسحوقين بالحرارة ، سكارى من العطور والتعب ، فرموا أكياسهم  
وتخلوا عن بلوغ القمة . لقد كانت المنحدرات صخرية ومليئة بالصوان .  
وظللتهم شجرة سديان ضامرة بظلها المستدير . وسحبوا المؤن من الأكياس  
وأكلوا . كان الجبل كله يرتج تحت الأشعة واليزان ؛ وكانت الحرارة تصعد  
فتحاصرهم تحت سديانتهم . وانقلب باتريس على الأرض ملتصق الصدر  
بالاحجار فتشقق عييراً لاهباً . وكان يتلقى في بطنه ضربات الجبل الخرساء  
الذي كان يبدو في حالة عمل . وانتهت رقابة تلك الضربات ، وغناء الحشرات  
المصم بين الاحجار الحارة والعطور البرية — انتهت بان أنامته .

عندما استيقظ كان مكسواً بالعرق ، متيبساً . وكانت الساعة تقارب  
الثالثة ، وكانت الفتيات قد اختفين . وما لبثت ضحكات وصيحات ان انبأت  
عنهن . وكانت الحرارة قد خفّت . كان ينبغي الهبوط من جديد . وفي تلك اللحظة  
بالذات ، ولأول مرة ، في منتصف الطريق ، أصيب مرسو باغواء . وحين نهض ، لمح  
البحر شديد الزرقة من خلال ثلاثة وجوه قلقة . واستأنفوا الهبوط على مهل ،  
وعند المنحدرات الاخيرة ، طلب مرسو استراحة . كان البحر يخضر مع السماء ،

وكانت عذوبة تامة تصعد من الأفق وعلى الروابي التي كانت تمتدّ الشنوه حول  
الجون الصغير ، كانت شجرات السرو تسود على مهل . كانوا جميعاً صامتين ،  
ومع ذلك قالت كلير :

— يبدو عليك التعب .

— بلا شك . أيتها الفتاة الصغيرة .

— إسمع . ان الأمر لا يعنيني . ولكن هذه المنطقة لا تناسبك في شيء .  
إنها مفرطة القرب من البحر ، مفرطة الرطوبة . فلماذا لا تذهب لتعيش في  
فرنسا ، في الجبال ؟

— هذه النقطة لا تقيدي شيئاً ، يا كلير ، ولكنني سعيد فيها . انني أحس  
بوافق مع نفسي .

— انما ادعوك الى هذا لكي تستطيع ان تكون كذلك كلياً ولمدة أطول .

— لا يعيش المرء سعيداً لمدة أقصر أو أطول . انه يكون سعيداً ، هذا كل  
شيء . والموت لا يمنع شيئاً . انه عارض طارئ للسعادة في هذه الحالة .

وسكتوا جميعاً . ولكن روز قالت بعد فترة :

— لست مقتنعة .

وعادوا الى البيت على مهل في المساء الهابط .

وتكفّلت كاترين باستدعاء برنار . وكان مرسو في غرفته ، ومن فوق  
ظلّ مربعات البيت اللامع ، كان يرى بقعة الدرابزون البيضاء ، والبحر كشریط  
من القماش الداكن المتموج يعلوه الليل الأكثر إضاءة ، وان كان بلا نجوم . وكان  
يحس الضعف . ولكن ضعفه ، بفضل أعجوبة خيرة ، كان يخفف من همّه ويجعله صافياً .  
وحين طرق برنار الباب ، أحس مرسو بأنه سيقول له كل شيء ليس بسبب

ان سرّه يثقل عليه . فانه لم يكن في ذلك أي سر . فلئن كان قد كتم سره حتى الآن ، فأنما كان ذلك بالقدر الذي يحفظ به المرء افكاره في بعض الاوساط لأنه يعلم انها ستصدم الافكار المسبقة والغباوة . ولكنه اليوم ، بالرغم من كل تعب جسده وصدقه العميق ، فان مرسو ، شأنه في ذلك شأن الفنان بعد ان يكون قد داعب وبنى لفترة طويلة عمله واحس بضرورة اخراجه الى النور والتواصل اخيراً مع البشر ، ان مرسو كان يحس أن عليه ان يتكلم . ومن غير ان يكون متأكداً من انه سيقعل ذلك ، كان ينتظر برنار بنفاد صبر .

ومن غرف الطابق الارضي تصاعدت ضحكتان نديتان جعلتاها يبتسم .  
في هذه اللحظة ، دخل برنار ، فقال :

— ما المسألة ؟

قال مرسو : كما ترى .

وضع الساعة على صدره . لم يكن باستطاعته ان يقول شيئاً . ولكنه كان يودّ ان يجري له تصويراً على الاشعة ، اذا كان يقوى على ذلك .

وأجاب مرسو : — فيما بعد .

صمت برنار وجلس على حافة كوة النافذة ، ثم قال :

— انني لا احب ان اكون مريضاً ، انا . انني اعرف ما يعنيه ذلك . ليس هناك ما هو قبيح ومُحطّ اكثر من المرض .

كان مرسو غير مكترث . وقد نهض من مقعده ، وقدم لفائف لبرنار فاشعل واحدة منها وهو يضحك :

— هل استطيع ان اطرح عليك سؤالاً يا برنار ؟

— نعم .

— انك لا تأخذ حمامات بحر قط ، فلماذا إذن كنت قد اخترت هذا المكان لتعزل ؟

— آه ! إنني لا أدري تماماً . كان ذلك منذ زمن بعيد .  
وبعد فترة أضاف :

— ثم انني تصرفت دائماً بدافع من ضغينة . اما الآن فقد تحسنت الأمور .  
في السابق ، كنت أريد ان اكون سعيداً ، وان اعمل ما ينبغي عمله ، ان استقر  
مثلاً في بلد يروق لي . ولكن الاستباق العاطفي هو دائماً زائف . وإذن ، فيجب  
ان نعيش كأهل ما نستطيع ان نعيش ، وألا نقترس الأمور . ان ذلك فظ بعض  
الشيء . ولكنه ايضا وجهة نظر اجمل فتيات العالم . في الهند الصينية ، مضيت  
الى أبعد الحدود . أما هنا فانني أجتر . ببساطة .

قال مرسو ، من غير ان يتوقف عن التدخين ، وهو غاطس في مقعده ينظر  
الى السقف :

— نعم ، ولكنني لست متأكدا من ان كل استباق عاطفي هو زائف . ان  
هذه الاستباقات هي فقط ضالة . وعلى كل حال ، فان التجارب الوحيدة التي  
تهمنى هي تلك التي يكون فيها كل شيء بالضبط كما نأمل ان يكون .  
وابتسم برنارد :

— اجل ، مصير وفق المقاييس .

قال مرسو ، من غير ان يتحرك :

— ان مصير انسان ما ، هو دائما أخاذ إذا استطاع ان يتوجه بشغف .  
ومصير أخاذ ، بالنسبة للبعض ، هو دائما مصير وفق مقاييس .

قال برنار : « نعم » . ونهض بجهد ونظر لحظة الى الليل ، وظهره متجه  
بعض الشيء نحو مرسو .

ومن غير ان ينظر اليه ، استأنف يقول :

— انك معى في هذا البلد الرجل الوحيد الذي يعيش بلا رفقة . اننى لا اتحدث عن زوجتك وعن اصدقائك . فأنا اعرف جيداً انهم أحداث عرضية ، ومع ذلك ، فيبدو عليك انك تحب الحياة اكثر منى ( واستدار اليه ) ذاك ان حب الحياة ، بالنسبة لى ، ليس أخذ الحمامات ، بل ان يعيش المرء بطريقة مدوّخة ، جاعة . نساء ، ومغامرات ، وبلاد . ان تعمل ، أن تخضع شيئاً ما . حياة ملتبة ومدهشة . أقصد ... لفهمنى ... ( كان يبدو وكأنه خجل من ان يكون قد تحمس ) اننى اكثر حبا للحياة من ان اشقى غلتي من الطبيعة .

كان برنار يلتقط مساعه ويفلق حقيبة عدته . فقال له مرسو :  
— إنك في الواقع مثالى .

لقد كان لديه هو الشعور بأن كل شيء كان محصوراً في هذه اللحظة التي تمتد من الولادة حتى الموت ، وان كل شيء يحكم عليه ويكرّس هنا .

قال برنار بنوع من الحزن :

— الواقع أن نقيض المثالى هو ، في غالب الاحيان ، رجل بلا حب .

قال مرسو وهو يمدّ اليه يده :

— لا تعتقد ذلك .

وشد برنار عليها فترة طويلة ، ثم قال مبتسماً :

— إذا اردنا التفكير مثلك ، فلن يكون هناك إلا رجال يعيشون على بأس كبير أو أمل كبير .

— ربما على الاثنين .

— أوه ، اننى لا أطرح سؤالاً !

قال مرسو بجد :



— انني اعلم .

ولكن حين بلغ برنار الباب ، ناداه مرسو ، مدفوعاً باندفاع لاواعٍ :

قال الطبيب وهو يلتفت : « نعم » .

— هل انت قادر على ان تكن احتقاراً لانسان ؟

— أظن .

— بأية شروط ؟

وفكر الآخر :

— يبدو لي ان ذاك بسيط بما فيه الكفاية . في جميع الحالات التي يكون فيها

المرء مدفوعاً بالمصلحة او بحب المال .

قال مرسو :

— هذا بسيط ، بالفعل . مساء الخير يا برنار .

— مساء الخير .

وإذ بقي مرسو وحيداً ، أخذ يفكر . الى الحد الذي بلغه ، فان احتقار انسان كان يتركه لا مبالياً . ولكنه كان يجد لدى برنار اصداء عميقة كانت تقربه منه . وكان يبدو له غير محتمل ان يدين قسم منه القسم الآخر . أترأه كان قد تصرف بدافع المصلحة ؟ كان قد وعى هذه الحقيقة الاساسية واللا أخلاقية بأن المال هو احدى الوسائل الأضمن والأمرع لكسب كرامته . وكان قد توصل الى طرد المرارة التي تستولي على كل نفس كريمة النسب وهي تتأمل ما في ولادة مصير جميل وشروط غموة من ظلم ونذالة . وتلك اللعنة القادرة المثيرة التي تجعل الفقراء يُنهون في البؤس الحياة التي بدأوها في البؤس ، كان قد أبعد ما هو يحارب المال بالمال ، ومع الكراهية الكراهية . ومن هذا الصراع بين وحش ووحش ، كان يتفق أحياناً ان يخرج الملاك ، منغمساً باكملة في سعادة جوانحه وبجده ، تحت نفحة البحر الدافئة . كان يبقى فقط انه لم يكن قد قال شيئاً لبرنار وان

عمله سيظل بعد الآن سرّاً .

في عصر اليوم التالي ، حوالي الساعة الخامسة ، ذهب الصديقات . وفي لحظة الصعود الى الاوتوبيس ، التفتت كاترين الى البحر وقالت :

— الى اللقاء ، ايها الشاطيء .

وبعد لحظة ، كانت ثلاثة وجوه ضاحكة تنتظر الى مرسو عبر زجاج الداخل . وكحشرة ضخمة مذهبة ، كان الأوتوبيس الاصفر يخترق في الأشعة . وبالرغم من ان السماء كانت صافية ، فقد كانت خانقة بعض الشيء . وإذا كان مرسو وحيداً في الطريق كان يحس في اعماق قلبه مزيجاً من الخلاص والحزن . اليوم فقط كانت وحدته تصبح حقيقية لأنه اليوم فقط كان يحس نفسه مرتبطاً بها . وان يكون قد قبلها ، وان يدرك انه بعد الآن سيد ايامه القادمة ، فان ذلك كان يملأه بالكآبة التي تلتصق بكل عظمة .

وبدلاً من ان يسلك الطريق الرئيسية ، عاد بين شجرات الخروب والزيتون في مر صغير منحرف كان يمر عند اسفل الجبل وينتهي خلف بيته . وقد سحق بقدمه بعض حبات الزيتون ولاحظ ان الطريق كان باكملة مغطى بالبقع السوداء . في آخر الصيف ، كانت شجرات الخروب تضيء رائحة حب على الجزائر كلها . وفي المساء او بعد المطر ، كانت الارض كلها تبدو وكأنها ، بعد ان تكون قد منحت نفسها للشمس ، تريح بطنها المبتل ببذار عطرها كعطر اللوز المر . وطوال النهار ، كانت رائحتها قد هبطت من الشجرات الكبيرة ، ثقيلة وخانقة . وفي هذا المر الصغير ، مع المساء ، وتأوه التربة الرخي ، كانت الرائحة تغدو خفيفة ، لا يكاد انف باتريس يحسها كعشقة تخرج معها في الطرقات بعد عصر خانق ، فتتنظر اليك ، وكتفها لصق كتفك ، وسط الاضواء والناس .

امام رائحة الحب هذه وثمراتها المسحوقة العطرة ، أدرك مرسو ان الموسم ينتهي ، وان شتاء كبيراً سيظل . كان ناضجاً لانتظاره . ومن هذا

الممر ، لم يكن البحر يرى ، ولكن كان باستطاعة المرء ان يلاحظ عند قمة الجبل غيوماً خفيفة حمرة كانت تبشر بالمساء . وعلى الارض ، كانت بقع من الأشعة تشحب بين ظلال الاغصان .

وتنشق مرسو بعنف الرائحة المرة العطرة التي كانت تكمر في ذلك المساء عرسها مع التربة . وهذا المساء الذي كان يهبط على العالم ، في الطريق بسين شجرات الزيتون والمصصكا ، على الكروم والتربة الحمراء ، قرب البحر الذي كان يهدر يهدوء ، هذا المساء كان يدخل فيه كالمسد . كثير من الامسيات الشبيهة كانت في نفسه كوعد بالسعادة . وأن يحس بهذه الأمسية كسعادة ، ذلك ما جعله يقيس الطريق الذي كان قد اجتازه من الأمل حتى النصر . وفي براءة قلبه ، كان يتقبل هذه السماء الخضراء وهذه الارض التي يبللها الحب ، بارتعاشه الهوس والشهوة نفسها التي غلكته حين قتل زغرو في براءة قلبه .

## الفصل الخامس

في كانون الاول ، أزهرت شجرات اللوز . وفي آذار ، اكتست شجرات  
الإجاص والدراق والتفاح بالازهار . وفي الشهر الذي تلا ، ريت الينابيع ربواً  
غير ملحوظ ، ثم عادت الى منسوب طبيعي . وفي أوائل أيار قطعوا الحشيش ،  
وفي الايام الاخيرة ، حصدوا الشوفان والشعير . وكانت اشجار المشمش قد  
انتفخت بالصيف . وفي حزيران ، ظهر الإجاص الباكري مع الحصاد الكبير .  
وكانت الينابيع قد بدأت تشح والحرارة تتفاقم . ولكن دم الارض ، الناصب  
في هذا الجانب ، كان يُزهر بجانب آخر في القطن ويسكّر أوائل الاعناب . وهبت  
ريح عنيفة لاهبة جففت الاراضي وأشعلت حرائق في كل مكان تقريباً . ثم  
فجأة ، انقلبت السنة . وبسرعة انتهى القطاف . وكُنس المطر الارض  
بفيضانات كبيرة من أيلول حتى تشرين الثاني . ومعها ، وما كادت اعمال الصيف  
تنتهي حتى بدأت حقول القمح وأوان البسّار الاولى ، بينما كانت الينابيع  
تتضخم فجأة وتتفجر سيولاً . وفي آخر السنة كان القمح قد بدأ ينبت في بعض  
الاراضي ، بينما لم تكّد أراض أخرى تنتهي من استقبال الحرارة . وبعد ذلك  
بقليل ، غدت شجرات اللوز من جديد بيضاء في السماء المثلجة الزرقاء .  
وتتابعت السنة الجديدة في الارض والسماء . وغُرس الدخان ، وحرثت  
الكرمة وكبرت ، وُطعمت الاشجار . وفي الشهر نفسه ، نضج الزعرور ،  
ومن جديد ، أقبل أوان حصاد الكلأ ، وحصاد الصيف . وفي منتصف السنة ،  
كانت الثمار التارّة التي تلتصق بالاصابع تقطعي الطاولات : التين ، الدراق

والاجاص التي تؤكل بشراهة بين دراسين . وفي موسم القطاف التالي ، اكتست السماء ، فمرت أسراب سوداء صامته من الزرازير والسمن ، قادمة من الشمال . كان مروورها يعني ان الزيتون قد بدأ ينضج . وحوش فعلاً بعد فترة من مروورها ، وفي الارض اللزجة نبت القمح مرة ثانية . ومرت رفوف ضخمة من الفيوم قادمة هي أيضاً من الشمال على البحر وعلى الارض ، فمسحت عن الماء زبده وتركته نقياً مثلجاً تحت سماء من البلور . ولعدة أيام ، حصل في المساء برق بعيد صامت . وبدأت أيام البرد الاولى .

في هذا التاريخ تقريباً ، لزم مرسو الفراش لأول مرة . فقد حبسته نوبات داء الجنب وألزمته غرفته شهراً . وعندما شفي ، كانت أواخر منحدرات شتوة قد اكتست بالاشجار المزهرة التي كانت تنحدر نحو البحر . لم يسبق قط لأي ربيع ان وجده حساساً إلى هذا الحد ، وأول ليلة من نقاهته ، مشى طويلاً عبر الاراضي حتى الرابية المليئة بالحرائب حيث كانت ترقد تيبازا . وفي صمت مسكون بأصوات السماء الحريية ، كان الليل اشبه بجليب على العالم . وكان مرسو يعيش على الشاطيء الصخري ، مشبعاً بتأمل رزين لهذا الليل . وكان البحر ، دونك قليلاً ، يهدر يهدوء . وكان يرى مليئاً بالقمر والمخل ، طرياً ، أملس كأنه وحش . في هذه الساعة التي كانت تبدو له فيها حياته بعيدة جداً ، بدا المرسو وهو وحيد ، غير مكترث بشيء ولا بنفسه ، انه كان قد بلغ أخيراً ما كان يبحث عنه ، وان هذا السلام الذي كان يملأه كان قد ولد من استسلامه الصبور الذي كان قد تابعه وبلغه ، بمساعدة هذا العالم الحار الذي كان ينكره بلا غضب . كان يعيش بخفة ، وكان وقع خطاه يبدو له غريباً ، مألوفاً بلا شك ، ولكن كحفيف الحيوانات بين ادغال الزعرور ، وابقاعات البحر أو خفقات الليل في اعماق السماء . وكان كذلك يشعر بحسده ، ولكن بالاحساس الخارجى ذاته الذي يحس به النفخة الحارة لهذا الليل الربيعي ورائحة الملح والعفن التي كانت تصعد من البحر . كانت جولاته في العالم ، واصرار

على تطلب السعادة ، وجرح زغرو المريع ، المليء بالمسحّ والعظم ، والساعات العذبة المحترسة في « البيت امام العالم » ، وامراته ، وآماله وأهله ، كل ذلك كان ماثلاً امامه ، ولكن كقصة مفضلة بين جميع القصص ، من غير سبب مقبول ، غريبة ومألوفة بطريقة خفية في آن واحد ، كتاب أثير يدغدغ ويؤكد أعماق ما في القلب ، ولكنه كتاب كتبه آخر . ولأول مرة ، لم يكن يحس في نفسه أية حقيقة أخرى غير حقيقة هوس المغامرة ، رغبة نسغ ، غريزة ذكية ودية لقراءة العالم .

وبلا غضب ولا حقد ، لم يكن يعرف ندماً . كان جالساً على صخرة يحس وجهها المجدور تحت أصابعه ، وهو ينظر إلى البحر ينتفخ بصمت تحت ضوء القمر . كان يفكر بوجه لوسيان الذي كان قد داعبه وبدف شفتها . وعلى سطح الماء السوي ، كان القمر ، الشبيه بالزيت ، يضع ابتسامات طويلة تائهة . ولا بد أن الماء كان دافئاً كفم ، رخيلاً مستعداً للانغمار تحت جسم انسان . وإذا ذلك ، أحس مرسو وهو ما يزال جالساً ، كم كانت السعادة قريبة من الدموع ، مغمورة كليّة في هذا الهوس الصامت الذي يُنسج فيه الأمل واليأس ممزوجين من حياة انسان . كان مرسو واعياً ومع ذلك غريباً ، منهوئاً بالهوس ومتجرداً ، فكان يدرك ان حياته نفسها ومصيره كانا ينتهيان هنا ، وان كل جهده سيبدل بعد الآن ليتدبر أمره مع هذه السعادة وليواجه حقيقتها المرعبة .

كان ينبغي له أن يقطس في البحر الحار ، وان يتيه ليجد نفسه ثانية ، وان يسبح في القمر والدفء لكي يصمت ما كان في داخله باقياً من الماضي ولكي يولد لحن سعادته العميق . وتعرّى ، ونزل بضعة صخور ودخل في البحر . كان حاراً كجسد ، وكان ينزلق على طول ذراعه ، ويلتصق بساقيه بضمة لا تحتجز وهي ذلك مع حاضرة أبداً . وكان هو يسبح بانتظام ويحس بعضلات ظهره توقع حرّكته . وكلما رفع ذراعه ، كان يرمي على البحر الشاسع

قطرات فضة متراشقة ، ممثلة ، أمام السماء الخرساء الحية ، البذور الرائعة لحصاد من السعادة . ثم كانت الذراع تغطس من جديد ، كسكة حرائة قوية ، فتفلق المياه وتشقها الى نصفين لكي تتخذ فيها سنداً جديداً واملاً أكثر شباباً . وخلفه كان ينبعث من تحبّطات قدميه فوران زبد ، وفي الوقت نفسه صوت ماء هادر ، صاف صفاء غريباً في الوحدة وصمت الليل . ولإحساسه بإيقاعه وقوته ، كان نوع من الحماسة يكتسحه ، فيتقدم بمزيد من السرعة ، وفيما بعد وجد نفسه بعيداً عن الشواطئ ، وحيداً في قلب الليل والعالم . وفكر فجأة بالأعماق التي تمتد تحت قدميه فأوقف حركته . كل ما قد كان تحته كان يجذبه كأنه وجه عالم مجهول ، امتداد هذا الليل الذي كان يعيده لذاته ، وقلب حياة من ماء وملح لم تكتشف بعد . وراوده إغراء أبعد في الحال ، وكان متعباً جسدياً تعباً رائماً ، فرجع نحو الضفة . وفي تلك اللحظة دخل فجأة في تيار مثلج قاضط الى التوقف ، مصطك الاسنان ، مضطرب الحركات . وهذه المفاجأة التي واجهه بها البحر تركته دهشاً مذهولاً ، وكان ذلك الثلج ينفذ إلى اطرافه فيحرقه كحطب إلى بحماس صاف ومهووس كان يخلفه بلا قوة . وعاد بمشقة اكبر ، وعلى الضفة ، بمواجهة السماء والبحر ، ارتدى ملابس وأسنانه تصطك وهو يضحك من السعادة .

حين عاد إلى منزله ، تملكه انزعاج . ومن الممر الضيق الذي كان يصعد من البحر نحو دارته ، كان يستطيع أن يرى الرعن الصخري الذي كان يقابله ، وجذوع الأعمدة والحرائب الملساء . وفجأة ، انقلب المشهد ووجد نفسه مستنداً إلى صخرة ، نصف منقلب على دغل من شجر الزعرور كانت أوراقه المسحوقة تترك رائحتها تفوح . وعاد بمشقة الى الدارة . كان جسده الذي كان قد حمله الساعة إلى آخر حدود الفرح يُغرقه الآن في ضيق كان يأخذ بأحشائه ويغلق منه العينين . وصنع لنفسه شاياً . ولكنه كان قد أخذ إثناء قذراً ، ليسخن الماء ، فكان الشاي مدهناً حتى الغثيان . ومع ذلك فقد شربه قبل أن يذهب لينام .



وحين خلع حذاءه ، لاحظ على يديه اللتين كان الدم قد انسحب منها ، ان اظافره وردية جداً، ومتسعة ومخنية حتى انها تغطي اطراف الاصابع . انه لم يسبق له قط ان كانت له مثل هذه الاظافر التي كانت تضي على يده مظهرأ من الالتواء والانحراف . وكان يحس صدره محصوراً في مازمة . وسعل ويصق عدة مرات بطريقة طبيعية بالرغم من ان فمه احتفظ بمذاق دم .

وفي السرير ، انتابته ارتجافات طويلة ، كان يحسها تصعد من أقصى الجسد وتلتقي عند الكتفين كخيطي ماء مثلج ، بينما كانت اسنانه تصطك من فوق الشراشف التي كانت تبدو له مبتلة . وكان يخيل اليه ان البيت واسع والاصوات المألوفة التي كان يسمها كانت تتسع حتى اللانهاية كما لو انها لم تكن تلتقى جداراً يضع جداً لأرتجاعاتها . كان يسمع البحر كاندقاق ماء وحصى ، وخققان الليل وراء زجاجه الكبير ، ونباح الكلاب في المزارع البعيدة . وأحس بالحرارة ، فألقى بالاغطية ، ثم أحس بالبرد ، فأعادها . وفي هذا التأرجح بين عذابين ، وذلك الاسترخاء وهذا القلق الذي كان ينتزعه من النوم ، وعى فجأة انه كان مريضاً . وعراه ضيق إذ فكر أنه قد يموت في هذه الحالة من اللاوعي ، ومن غير ان يستطيع النظر أمامه . وفي القرية قُرع جرس الكنيسة ، من غير ان يستطيع معرفة عدد الدقات . لم يكن يريد أن يموت مريض . بالنسبة له على الأقل ، لم يكن يريد ان يكون المرض ما هو غالباً ، انحالاً وانتقالاً نحو الموت . إن ما كان يوده بعد بلاوعي ، انما هو لقاء حياته ، وهي مليئة دماً وصعة ، مع الموت ، وليس مواجهة الموت مع ما كان الآن أشبه بالموت .

ونهض ، فجذب يجهد مقعداً نحو النافذة وجلس وهو يغطي نفسه . وخلف الستائر الخفيفة ، في الأمكنة التي لم تكن الشنايا تكثف فيها القباش ، كان يرى نجوماً . تنفس طويلاً وشد على ذراعي مقعده ليهدي يديه اللتين كانتا ترتجفان . كان يريد أن يستعيد صفاءه .

وكان يفكر : « هذا ممكن » . وفي الوقت نفسه ، كان يفكر بأن الغاز كان ما يزال مشتعلًا في المطبخ فكان يردد : « هذا ممكن » . كان الصفاء هو أيضاً صبراً طويلاً ، كل شيء كان يمكن اكتسابه والحصول عليه وكان يضرب بقبضته ذراعي مقعده . ان المرء لا يولد قوياً ، أو ضعيفاً أو مقطوعاً ، بل هو يصبح قوياً ، ويصبح واعياً . ان المصير ليس في الانسان بل حول الانسان . ولاحظ إذ ذاك انه كان يبكي . كان ضعف غريب ، نوع من الجبن منبثق من المرض ، يعيده إلى الطفولة وإلى دموعه . فكان يحس برداً في يديه وقرفاً كبيراً في القلب . وكان يفكر بأظافره ، وتحت ترقوته دحرج غدداً بدت له ضخمة . وفي الخارج كان كل ذلك الجمال المنتشر على العالم .

لم يكن يريد أن يغادر حسه للحياة وحرصه عليها . وكان يفكر بتلك الامسيات على مدينة الجزائر حيث يصعد في السماء الخضراء ضجيج الرجال وهم يخرجون من المصانع على نداء الصفارات . بين مذاق الابست ، والزهور البرية في الخرائب وعزلة البيوت الصغيرة المحاطة بالسرو في « الساحل » ، كانت تحاك صورة لحياة كان الجمال والسعادة ، ينتزعان فيها من اليأس وجهه ، وكان باتريس يجد فيها نوعاً من الأبدية الهاربة . لم يكن يرغب في ان يترك هذا ولا أن تكون هذه الصورة قادرة على الاستمرار من دونه . وامتلاً بالتمرد والشفقة ، قرأى إذ ذاك وجه زغرو متجهاً نحو النافذة . وسمل طويلاً . وكان يتنفس بشقة . وكان يحنق في ثياب الليل . وكان يحس بالبرد ، وكان يحس بالحر . كان يحترق بغضب كبير عكر ، وكانت قبضته مضمومتين . ودمه كله يخفق خفقات كبيرة تحت جمجمته . كان نظره فارغاً ، وكان ينتظر الرعشة الجديدة التي ستغمره من جديد في الحمى العمياء . وجاءت الرعشة ، فردته إلى عالم رطب مغلق أغمضت فيه عيناه فأسكتت تمرد الحيوان ، الحريص على عطشه وجوعه . ولكن قبل أن ينام أتيح له أن يرى الليل ببيض قليلاً خلف الستائر ، وان يسمع ، مع الفجر ويقظة العالم ، ما يشبه نداء كبيراً من الحنان والأمل كان يبرر بلا شك

رعبه من الموت ، ولكنه كان في الوقت نفسه يطمئنه بأنه سيجد مبرراً للموت في ما سبق ان كان مبرره الكامل للحياة .  
عندما استيقظ ، كان النهار قد قطع شوطاً ، وكان شعب كامل من العصافير والحشرات يغني في الحر . وفكر بأن لوسيان كان لا بد ان تأتي اليوم ذاته ، وكان محطماً فعاد بمشقة الى سريره . وكان مذاق الحمى في فمه وذلك الضعف الذي يحيل الاشياء في عيني المريض أكثر صلابة والكائنات أكثر اكراهاً .  
واستدعى برنار فحضر ، منهمكاً على عاداته وصوتاً ، وفحص نبضه ، وخلع نظارتيه ليمسح زجاجها . وقال : « حالة سيئة » . ثم حقنه حقنتين . عند الثانية ، بالرغم من ان مرسو كان قليل الرهافة ، فقد اغمي عليه . وعندما استعاد وعيه ، كان برنار يمسك قبضته بيد وساعته باليد الأخرى ، وكان يتأمل التقدم المهتز لعقرب الثواني .

قال برنار :

— انت ترى ، إغماء لربع ساعة . إن قلبك يستسلم . وقد تموت ، في إغماء جديدة .  
أغمض مرسو عينيه . كان منهوكة ، شفتاه بيضاوان وجافتان ، وتنفسه يصفر .

قال : — برنار .

— نعم .

— لا أريد ان أموت بإغماء . انني بحاجة إلى ان أرى بصفاء . انت تفهمني .

قال برنار :

— نعم .

وأعطاه عدة جرعات : « اذا أحسست بالضعف ، فأكسرها وابلعها . انه « ادرينالين » .

والتقى برنار ، وهو خارج ، لوسيان التي كانت قادمة .

— إنك على عادتك فتّانة .

— هل بائيس مريض ؟

— نعم .

— وهل وضعه خطير ؟

قال برنار :

— لا ، إنه بحالة جيدة جداً . ( وقبل ان يذهب أضاف ) في الواقع ، أنصحك أن تتركه وحيداً قدر الامكان .

قالت لوسيان :

— آه .. لا أهمية لذلك إذن .

طوال اليوم كله ، كان مرسو يحنق . وأحس مرتين بالفراغ البارد العنيد يحنّيه الى اغشاء جديدة ، ومرتين سحبه الادريالين من هذه القطعة السائلة . وطوال النهار ، نظرت عيناه الداكنتان إلى القرية الرائعة . حوالي الساعة الرابعة ، بزغ زورق كبير أحمر على البحر وتضخم شيئاً فشيئاً وهو يرشح شمساً وماء وقشوراً .

كان بيريز واقفاً يحذف بانتظام . وجاء الليل اذ ذاك بسرعة . واغمض مرسو عينيه ، ولأول مرة منذ الليلة الماضية ، ابتسم . كان قد لزم الصمت . وكانت لوسيان في غرفته منذ لحظة ، قلقة بغموض ، فأنكبت عليه وقبلته . قال مرسو :

— اجلسي . تستطيعين البقاء .

قالت لوسيان :

— لا تتكلم . ان هذا يتعبك .

وأتى برنار ، فحقن حقناً وذهب . وكانت غيوم كبيرة حمراء تمر بهدوء في السماء .

قال مرسو يجهد ، وهو غاطس في نخلته وعيناه شاخصتان الى السماء :

— كانت امي تقول لي ان ارواح الأموات هي التي كانت تصعد الى السماء ،

وكننت منذهلا أن تكون لي روح حمراء . والآن أدرك ان ذلك في أغلب الاحيان انما هو وعد ريح . ولكنه كذلك رائع .

وبدا الليل ، كانت الصور تتقدم . حيوانات كبيرة خرافية كانت تهز رأسها فوق المناظر الصحراوية . وأبعدها مرسو بلطف من اعماق حماء . كان يفسح المجال فقط لوجه زغرو بأخوته الدامية . ان الذي سبق ان أعطى الموت سيموت . وكما كان الامر بالنسبة لزغرو ، كانت النظرة الواعية التي كان يلقيها على حياته نظرة رجل . الى الآن كان قد عاش . والآن يمكن للناس ان يتحدثوا عن حياته . ومن هذا الانطلاق الكبير الجامع الذي كان قد حمله الى الامام ، ومن الشعر الهارب خالق الحياة ، لم يكن يبقى الآن سوى الحقيقة التي لا تجاعيد فيها والتي هي بقيض الشعر .

ومن جميع الاشخاص الذين كان قد حملهم في ذاته ككل انسان في بداية هذه الحياة ، من هؤلاء الكائنات التي كانت تمزج جذورها من غير أن تحتلط ، كان يدرك الآن أيها قد كان : وهذا الاختيار الذي يخلقه القدر في الانسان كان قد حققه في الوعي والشجاعة . وهنا كانت تكمن سعادته كلها في ان يعيش وان يموت . هذا الموت الذي كان قد نظر اليه بهلع وحشي ، كان يدرك ان الخوف منه كان يعني الخوف من الحياة . كان الخوف من الموت يبرر تعلقاً لا حدود له بما هو حي في الانسان . وجميع الذين لم يسبق لهم ان صفوا الاعمال الحاسمة ليرفعوا حياتهم ، جميع أولئك كانوا يخافون العجز ويمجدونه ، أولئك جميعاً كانوا يخافون الموت ، بسبب العقوبة التي كان يجعلها الى حياة لم يسبق لهم ان امتزجوا بها . لم يكونوا قط عاشوا بما فيه الكفاية ، لكونهم لم يعيشوا قط . وقد كان الموت أشبه بحركة تحريم من الماء الى الابد المسافر الذي كان قد بحث عبثاً لينقع ظمأه . اما بالنسبة للآخرين ، فقد كان الموت الحركة المقدرة الحنون التي تمحو وتنفي ، باسمه للعرفان مثل بسمتها للتمرد .

وأمضى يوماً وليلة جالساً على سريره ، ذراعاه على طاولة السرير ، ورأسه بين ذراعيه . ولم يكن يستطيع ان يتنفس وهو مضطجع . والى جانبه ، كانت

لوسيان جالسة تراقبه من غير ان تنبس بكلمة، وكان مرسو ينظر اليها احياناً.  
وكان يفكر بأن أول رجل سيأخذ قامتها من بعده ، سيجعلها ترتخي .

انها ستمنح نفسها وهي متجمعة كلياً في نهدِها كما منحت نفسها له من قبل ،  
وسيستمر العالم في دفء شفتيها المنفرجتين . وكان احياناً يرفع الرأس وينظر  
عبر النافذة . لم يكن حليقاً . وكانت عيناه المهرتان عند جوانبها ، الغائرتان  
بعمق ، قدم فقدتا ألقها الداكن وكانت وجنتاه الموقوفتان الشاحبتان تحت  
الزغب المزرق تبدلانه تماماً .

وكانت نظرتة ، نظرة القطط المريض ، تستقر على الزجاج . كان يتنفس  
ويلتفت نحو لوسيان . عندها كان يبتسم ، وفي هذا الوجه الذي كان يهرب  
وينهار في كل جهة ، كانت تلك الابتسامة القاسية الواضحة تخلق قوة جديدة  
ورصانة جذلي .

كانت لوسيان تقول بصوتها المنطفىء : « هل تتحسن ؟ »

فيقول : « نعم »

وكان يرجع من بعدها الى ليل ذراعيه .

وعند تخوم قوته وصموده ، كان يلتقي لأول مرة ومن الداخل ، رولان  
زغرو الذي كانت ابتسامته تفيظه كثيراً في بادىء الامر . وكان تنفسه القصير  
المتدافع يترك على رخام طاولة الليل بخاراً رطباً كان يرد له حرارته . وفي  
هذا الدفء غير الرديء الذي كان يصعد نحوه ، كان يحس إحساساً أعمق  
بالطرف المثليج لاصابعه وقدميه . ان هذا بالذات كان يكشف حياة ، وفي  
هذه الرحلة من البرد إلى الحر ، كان يستعيد الحواس الذي كان قد تملك زغرو ،  
شاكراً « الحياة التي تسمح له بان يحترق بعد » . وكان يحس نفسه مأخوذاً  
بحب عنيف أخوي لهذا الرجل الذي كان قد شعر أنه بعيد جداً عنه ، وكان  
يدرك انه ، بقتله ، كان قد عقد معه عرساً كان يشده به الى الابد . وتلك

المسيرة الثقيلة للدموع التي كانت في نفسه كمذاق مختلط للحياة والموت ، كان يدرك انها كانت مشتركة بينها . وفي جمود زغرو بالذات امام الموت ، كان يجد من جديد الصورة الخفية القاسية لحياته الخاصة . وكانت الحمى تساعده في ذلك ، ومعها ذلك اليقين المحمس الذي كان يملكه ليحتفظ بوعيه حتى النهاية وليموت وعيناه مفتوحتان . لقد كانت عيناه زغرو هو أيضاً مفتوحتين في ذلك اليوم ، وكانت دموع تسيل منها ، ولكنه كان آخر ضعف لرجل لم يكن له نصيب في حياته . وما كان باتريس يخشى هذا الضعف . ففي خفقات دمه المحموم الذي كان يتوقف دائماً على بعد بضعة سنتمترات من حدود جسده ، كان ما يزال يدرك ان هذا الضعف لن يكون ضعفه . ذلك انه ، هو ، كان قد قام بدوره ، وكان قد أتم واجب الانسان الوحيد الذي يتلخص في أن يكون سعيداً . ليس لمدة طويلة بلا شك . ولكن لا شأن للوقت بذلك ، انه لا يمكن أن يكون إلا عقبة ، وهو آنذاك ليس شيئاً . كان قد هدم العقبة ، وهذا الأخ الداخلي الذي كان قد ولدته في ذاته ، سيان ان يكون سنتين أو عشرين .

نهضت لوسيان ، وغطت من جديد كتفي مرسو اللتين كان الغطاء قد انزلت عنهما . وارتعش تحت هذه الحركة . منذ اليوم الذي كان فيه قد عطس في الساحة الصغيرة امام دارة زغرو ، حتى هذه الساعة ، كان جسده قد خدمه باخلاص وكان قد فتحه على العالم . ولكنه كان في الوقت نفسه ، يتابع حياة خاصة منفصلة من الانسان الذي كان يمثله . كان قد تابع خلال هذه السنوات تحللاً بطيئاً . اما الآن ، فقد أتم الخناءته ووقف مستعداً ان يترك مرسو وان يعيده الى العالم . وفي هذه الرعدة الفجائية التي كان مرسو يعيها ، كان يسجل مرة أخرى هذا التواطؤ الذي سبق ان منحها كثيراً من المرات .

وبهذه الصفة فقط ، كان مرسو يعتبر هذه الرعدة فرحة . كان هذا ، في وعيه ، ما كان يجب ، بلا تضليل ، وبلا جبن - وحيداً امام نفسه - وجهاً لوجه مع جسده - وعيناه مفتحتان على الموت . كان الامر يتعلق بقضية بين

رجال . لا شيء ، لا حب ولا ديكور ، بل صحراء لا نهائية من الوحدة والسعادة كان مرسو يلعب فيها آخر اوراقه . كان يحس نفسه يضعف . وقد تشق جراحة هواء ، وبهذه الحركة هدرت جميع أراغن صدره . كان يحس ربليتي ساقيه باردتين جداً ويديه عديمتي الاحساس . وكان النهار يطلع . وامتلاً النهار الذي بزغ بالعصافير والنداء . وارتفعت الشمس بسرعة ، وبقفزة وصلت فوق الافق . واكتست الارض بالذهب والحرارة . وفي الصباح كانت السماء والبحر تتلاطخان بالاضواء الزرقاء والصفراء ، ببقع كبيرة واثبة . وكانت ريع خفيفة قد هبت ، ومن النافذة كان هواء يحمل مذاق الملح يأتي ليرطب يدي مرسو . وعند الظهر توقفت الريح ، وتفتتح النهار كنثرة ناضجة ، وعلى امتداد العالم كله ، سال عصيراً دافئاً خائفاً ، وسط موسيقى زيزان مفاجئة . وتغطي البحر بهذا العصير المذهب كما يتغطي بزيت ، وأعاد الى الارض المسحوقة بالشمس هبة حارة فتحت وصدت عطوراً من الابسنت وندى البحر والحجارة الحارة . ومن سريره ، لاحظ مرسو هذه الصدمة وهذه المنحة ، وفتح عينيه على البحر الشاسع المنحني ، المتوهج المأهول بابتسامات آلهته . ولاحظ فجأة انه قد كان جالساً على سريره وان وجهه لوسيان كان قريباً جداً من وجهه . وكان يصعد في داخله بهدوء ، ابتداء من البطن ، ما يشبه حصاة كانت تسير حتى حلقه . وكان يتنفس بسرعة متزايدة . ونظر الى لوسيان فابتسم من غير تشنج . وكانت هذه الابتسامة تصدر من الداخل . وانقلب على سريره فأحس بالصعود البطيء في داخله . ونظر الى شفتي لوسيان المكتنزتين ، ومن خلفها ، ابتسامة الأرض . كان ينظر اليها النظرة نفسها ، بالرغبة ذاتها . وفكر : « بعد دقيقة ، بعد ثانية » . وتوقف الصعود ، وحجراً بين الاحجار ، عاد في فرحة قلبه الى حقيقة العوالم الجامدة .

تمت



## عن الرواية

كان نشر « دفاتر البير كامو » قد قرّرتَه عائلة الكاتب ونأشروه ، تلبية  
لرغبة العديد من الجامعيين والطلبة ، ويوجه عام جميع الذين يهتمون بمؤلفاته  
وتفكيره .

إنهم لا يفتتحون هذه المنشورات من دون تحفظات : كان البير كامو قاسياً  
على نفسه ، وكان لا ينشر شيئاً باستخفاف ، فلماذا إذن تُعرض للجمهور رواية  
متروكة ، ومحاضرات ، ومقالات ، وملفات وحق مسودات لم يكن هو  
نفسه قد احتفظ بها كـ « كتابات معاصرة » ؟

بكل بساطة ، لأن المرء حين يحب كاتباً أو يدرسه بعمق ، يتمنى غالباً ان  
يعرف كل شيء عنه . واولئك الذين يملكون كتابات كامو غير المطبوعة  
يعتبرون تعسفاً مسرفاً عدم تلبية هذه الرغبة المشروعة ورفض السماح بقراءة  
« الموت السعيد » أو « يوميات سفر » مثلاً لأولئك الذين يرغبون في ذلك .

إن الجامعيين الذين قادتهم دراستهم أحياناً في حياة كامو ، ليراجعوا كتابات  
صباه أو كتاباته التي جاءت بعد ذلك ، ولكنها غير معروفة إلا قليلاً أو التي لم  
تكن قد نشرت بعد ، يعتبرون ان صورة الكاتب لا يمكن إلا ان تتلون وتقتني  
بقراءة تلك الكتابات .

## تكوّن « الموت السعيد »

بقلم جان ساروكي

لن نلجّ في هذه المقدمة على المعطيات السيرية . فأهمّ ما ينبغي معرفته سبق ان قدّمه روجيه كيو في جزئيّ « البلياد » . ان « الموت السعيد » تستغلّ ذكريات الحيّ الفقير ، في « بلكور » حيث قضى البير كامو طفولته ، وعمله في السمسة البحرية ، ورحلته الى أوروبا الوسطى ، صيف عام ١٩٣٦ ، واسفاره في إيطاليا عامي ١٩٣٦ و ١٩٣٧ وإقامته في المصح ، وحياته في بيت فيشو أو « البيت أمام العالم » ، في أعالي مدينة الجزائر ، حيث استقر في تشرين الثاني ١٩٣٦ . ونقرأ فيها ايضاً بعض الحوادث من حياته الغرامية . فان سنتي علاقاته الزوجية وطلاقه من « سيمون هيا » الذي تم في سلازبورج بعد مناقشة عاصفة ، كل ذلك قد صور هنا وهناك شخصية نسائية ، ليس من السهل تحقيق هويتها ، تلعب هنا دوراً رئيسياً . وتبقى هناك نقاط استفهام ربما محتها ذات يوم دراسة منقبة : من كانت لوسيان ؟ ورولان زغرو ؟ والدكتور برنارد ؟ الخ ...

ويبدو هنا ان إقامة تطابق دقيق بين رواية وحياة ما ، أقل فائدة من رسم تخطيطي تكوّن أدبي .

ان أول تنويه دقيق ، « في الدفاتر » عما سيصبح « الموت السعيد » هو

تصميم للقسم الثاني الذي لا يمكن إلا ان يكون لاحقاً للرحلة إلى أوروبا الوسطى . والمخططات الأخيرة « الموت السعيد » يرجع تاريخها إلى عام ١٩٣٨ . وإننا نجد أيضاً اسم مرسو في كانون الثاني ١٩٣٩ ، ولكن « الغريب » هو ما هم كأمو منذ ذلك الحين . وهكذا فإن « الموت السعيد » كانها قد صممت وحررت من عام ١٩٣٦ إلى ١٩٣٨ . إنها معاصرة لأبحاث « الظهر والوجه » في شكلها الأول ، وأبحاث « الاعراس » في تحولاتها الأخيرة . وتليها الكتابة الأولى « كالفولا » .

ولكي تتكوّن لدينا احسن فكرة ممكنة عن الطريقة التي أعدت بها هذه الرواية ، يمكننا ان نتفحص أولاً الشكل النهائي للرواية . « الموت السعيد » تقسم إلى قسمين ، كل واحد منها يحتوي على خمسة فصول : « الموت الطبيعي » ثم « الموت الواعي » ولكن على امتداد مئة واربعين صفحة مطبوعة على الآلة الكاتبة ، لا يحتل القسم الأول سوى ٤٩ صفحة ، اكثر من الثلث بقليل . وعقدة « الموت الطبيعي » هي قتل رولان زغرو . فالبطل مرسو يقتله في الفصل الأول ، ويستولي على ماله ، ( ويصاب بالبرد ) وهو عائد إلى بيته . والفصول التالية هي عودة إلى الوراء : عن حياة مرسو العادية ( الفصل الثاني ) وعلاقاته بمارت وغيرته الجنسية ( الفصل الثالث ) وحديثه الطويل مع زغرو ( الفصل الرابع ) واخيراً حوار كان قد اجراه مع كردونا البراميلي الذي تروى قصته البائسة ( الفصل الخامس ) . ولكي نوجز فيما نعطي الخيط الهادي نقول : إن باتريس مرسو عامل بسيط ذو حياة معدمة ، له جار براميلي ذو حياة اكثر اعداماً ، وعشيق فتاة كان لها العاجز رولان زغرو العشيق الأول ، فيعقد بفضلها ، علاقات معه ، ويعرف ، وهو يحدثه ، كيف كوّن ثروته ، ويستغل هذا البوح ، فيقتله . ويقوم برحلة وهو منهار الصحة ولكن مليء الجيب .

والفصول الخمسة « للموت الواعي » تمثل إقامة مرسو في براغ ( الفصل الأول ) ومتابعة سفره وعودته ، بطريق جنوى ، الى مدينة الجزائر ( الفصل الثاني ) وحياته في « البيت أمام العالم » ( الفصل الثالث ) ورحيله الى جبل شنوة حيث استقر في بيت بمواجهة البحر ( الفصل الرابع ) واخيراً أصابته بداء الجنب وموته ( الفصل الخامس ) . ولكي نعطي الخط الهادي نقول : إن مرسو ، في براغ ، يحس السعادة ثقلت منه . انه يسترد مذاقها وهو يعود نحو الشمس . وإذا يعود الى مدينة الجزائر ، يحاول تجربتين متتابعتين لحياة سعيدة : اولاً في حياة مشتركة مع ثلاث صديقات في « البيت أمام العالم » ، ثم في عزلة زهدية ، تحفة بزيارات أمراءه لوسيان او بزيارات صديقاته الثلاث في جبل شنوة . ولقد اكتسب السعادة واحتفظ بها حتى في موته وهو يتذكر زغرو .

هذا الموجز السريع للرواية يوضح الموضوع الرئيسي : كيف يكون الموت سعيداً ؟ اي كيف يمكن ان يعيش المرء سعيداً الى حد يصبح فيه الموت نفسه سعيداً .

من هذا المفهوم للعيش الهنيء والموت السعيد ، يبدو القسم الأول ظهر الرواية بسبب فقدان المال ، والوقت والسيطرة العاطفية . والقسم الثاني ، بفضل الاستقلال المالي ، وتنظيم الوقت وسلام القلب ، هو وجه الرواية : هذا هو ، باختصار ، محتوى ومعنى « الموت السعيد » في شكلها النهائي .

والتقسيم الى قسمين هو متأخر جداً . فجميع تخطيطات التصميم بلا استثناء ، حتى عام ١٩٣٨ ، تشكل ثلاثة أقسام ، والتلسات لا تقوم إلا على توزيع الفصول . لذلك فنحن لن ندهش باللائحة ( ٤٩ صفحة مقابل ٩١ ) الذي ينفجر في التصميم النهائي . والتقسيم المثلث ، كما يشهد في ذلك مشروع معنون « إعادة التوزيع » ، كان أكثر توازناً : فكل قسم كان بإمكانه ان يضم تقريباً عدداً مماثلاً من الصفحات .

والتصميم النهائي يبرز مفارقة راسخة . وليس الأمر كذلك في التخطيطات الأولى . ومع ذلك ، فإن المفارقة ، والتعاقب يبدوان ، على الفور ، النابض الجمالي للرواية ، كما أنها نابض فلسفة كامو . وفي ملاحظة يقترح فيها رواية ست قصص :

قصة اللعب الباهر : ترف .

قصة الحبي الفقير . موت الأم .

قصة « البيت امام العالم »

قصة الغيرة الجنسية

قصة المحكوم بالموت .

قصة المهبوط نحو الشمس .

يكشف بترتيب العد بالذات ، همّ التعاقب هذا . فالقصص الست يمكن ان تتزاوج ثناء . ولكن حتى شهر آب من عام ١٩٣٧ يحاول ان يضاعف مفارقة القطبية بمفارقة الزمن : فبعض الفصول ستكتب بصيغة الحاضر ، وأخرى بصيغة الماضي . وحتى انه حاول ، في تصميم مفصل للقسم الثاني ، ان يجعل الأزمان تتابع وفق تشبيك صارم . وسيتخلّى عن هذه الشكلية التي لا تسندها ضرورة داخلية . ولكن اترأ يظل منها في النص النهائي : فان الفصل المكرس « للبيت امام العالم » وهو استحضار سعادة نقية ومتصلة ، ظل مكتوباً بصيغة الحاضر كما كان في المشروع الأولي .

والقصص الست التي ذكرت سابقاً بشكل العدة الاولى التي منها ستألف الرواية شيئاً فشيئاً . وباستطاعتنا ان نعيد تخطيط تكون الرواية بدءاً منها ومن تحويلاتها وتوزيعها .

فالتصاميم الاولى تؤكد على « قصة البيت امام العالم » الذي يحتل ، مع قصة الغيرة الجنسية « القسم الثاني » . وهذا هو التصميم الأول الذي نقرأه في « الدفاتر » .

القسم الثاني :

أ - في الحاضر .

ب - في الماضي .

الفصل ١ . البيت أمام العالم . تقديم .

» ب . ١ . كان يتذكر . ارتباطه بلوسيان .

» ١ - ٢ . البيت أمام العالم . صباه .

» ب . ٢ . لوسيان تروي خياناتها .

» ١ - ٣ . البيت أمام العالم . دعوة .

» ب . ٤ . غيره جنسية . سالز بورغ . براغ .

» ١ - ٤ . البيت أمام العالم . الشمس .

» ب ٥ . الحرب . ( الرسالة ) مدينة الجزائر .

يأخذ بردا ، ويمرض .

» ١ - ٥ . ليل أمام النجوم . كاترين .

فالقسم الأول مكرّس اذن ، كما نرى ذلك في تصميم لاحق في آب ١٩٣٧ ،  
للعب - المزدوج للحى المتألق الفقير : ما يعنيه اللعب المتألق ، فان خرافة  
سيزيف ستكشفه فيما بعد في الثلاثية الدونجوانية ، المهزلة والانتصار . هذا  
اللعب يقاوم صروف حياة « الحى الفقير » . وإذ ذاك يرتسم تضاد مزدوج  
يفضحه مشروع في شهر آب نفسه ١٩٣٧ :

القسم الاول : حياته حتى الآن .

القسم الثاني : اللعبة .

القسم الثالث : التخلي عن التسويات والحقيقة في الطبيعة والحياة « حتى  
الآن » تتضمن الفقر ، ساعات العمل اليومي الثاني ، تفاهة العلاقات الاجتماعية ،

وبالاجمال نمط من الوجود الزائف و « اللعبة » التي تشير إليها « الدفاتر » إشارة مقتضبة جداً ، من المفروض أن تعني نوعاً من التأنق ، تقدماً على الحياة الفقيرة ، اندفاعاً في التلذذ بالذات ، ولكن زيفاً ايضاً. هذا التضاد في النص النهائي « للموت السعيد » يفقد من أهميته ، إذ يكون مخففاً في الحوار ومقتضياً في ترقى مرسوم. وبالمقابل فإن اكتساب الصدق والصفاء ، بحركة هرب إلى العزلة والطبيعة ، يتمثل منذ التخطيطات الأولى ويبقى حتى آخر لحظة من الإعداد نهاية الرواية وغايتها.

ولكن يبدو أن « الموت السعيد » لا تنتهي في التخطيطات الأولى ، يموت البطل ، فنحن نقرأ في أحد التخطيطات هذه العبارة . « مذاق الموت والشمس » انه ليس سوى مذاق . وفي تصميم آخر ، نرى الموت مجاهلاً ولكنه يقع في نهاية القسم الأول . الفصل الأخير « هبوط نحو الشمس والموت » ( انتحار موت طبيعي ) ملاحظة يحذر تسجيلها . الموت والشمس على صلة فيما بينهما . وحين تحمل السعادة ، التي هي اسطورة أخلاقية ، محل الشمس التي هي صورة حسية فإن خطوة حاسمة ستجاوز نحو المفهوم النهائي . وباستطاعتنا أن نؤرخ هذه الخطوة بشهر آب ١٩٣٧ وبالملاحظة التالية : الرواية : الانسان الذي فهم انه ، لكي يعيش ، عليه أن يكون غنياً ، والذي يمنح نفسه كلها لهذا الكسب للمال ، ينتج منه ، ويعيش ويموت سعيداً ، ولأول مرة ، « في الدفاتر » نلتقي بموجز حقيقي « للموت السعيد » . وهنا ، ولأول مرة ، نجد فيها كلمة « رواية » .

الخيال الهادي من الآن فصاعداً واضح : سيكون تمثيلاً مقولوباً للشل : « المال لا يصنع السعادة » . السعادة بالمال . تصبح الموضوع الرئيسي ، كما يبدو ذلك بوضوح في مقدمة الملاحظة المؤرخة في ١٧ تشرين الثاني ١٩٣٧ :

١٧ تشرين الثاني .

## إرادة السعادة .

### القسم الثالث تحقيق السعادة .

ولكن في هذه اللحظة تدخل فجأة شخصية زغرو الذي لا يمثل بعد سوى « العاجز » لينير أمام مرسوم مشكلة العلاقات بين المال والزمن ويكشف له حقيقة تعبير مثل آخر : الزمن هو المال . وهذه العبارة صحيحة أيضاً بشكلها المقلوب . المال ، هو وقت سيشكل مادة أساسية من فنه للعيش ، ويدل عليه المقطع الأخير من ملاحظة ١٧ تشرين الثاني :

« بالنسبة لرجل « كريم النسب » ، ان يكون سعيداً ، معناه ان يسترد مصير الجميع لا بإرادة الزهد ، ولكن بإرادة السعادة . لكي يكون المرء سعيداً - يلزمه وقت ، كثير من الوقت . السعادة هي أيضاً صبر طويل . والوقت انما تسرقه منا حاجتنا إلى المال . ان الوقت يُشترى . وكل شيء يُشترى . ان تكون غنياً ، هو أن تملك وقتاً لكي تكون سعيداً عندما تصبح جديراً بأن تكونه . »

إذن فإن مواد الرواية المختلفة تعود فتتجمع حسب مزدوجة الوقت الضائع والوقت المكتسب . وسيكون الوقت الضائع هو وقت الفقر ، والعمل ، والحياة التافهة : الفصل المكرس لحياة مرسوم سيحمل عنوان « قتل الوقت » وهو عنوات يتناسب والعلاقة مع مارت والمرحلة الى أوروبا الوسطى . وقتل زغرو سيضع حداً لهذه الاوديسة اليائسة للوقت الضائع . والوقت المكتسب سيكون وقت « البيت أمام العالم » ووقت الحرب في الطبيعة . ومن هنا ، على ورقة مخطوطة ، مشروع تصميم من ثلاثة أقسام يصبح الفصل الأساسي منها ، كل مرة ، مهدى للوقت . القسم الأول يحتوي على سبعة فصول ، ابتداء من « قتل



الوقت» تضم حياة مرسو في مغامراته في مدينة الجزائر حتى من عودته براغ ( اي الصفحات الممتدة من ١ الى ٧٥ من النص النهائي ) كتب كامو: من « قتل الوقت » حتى .. كان نفسه مخلوقاً للسعادة » . هذه الجملة الأخير توجد تقريباً كما هي في الصفحة ٧٥ من النص النهائي : « وأدرك أخيراً انه كان مخلوقاً للسعادة » .

والفصل الأول من القسم الثاني يحمل آنذاك عنوان « ربح الوقت » - والحديث هنا يتناول « البيت أمام العالم » .

والفصل الأول من القسم الثالث ، يحمل عنوان الوقت الضائع ، وقت العمل ، الى الوقت المكتسب ، وقت البطالة بين فتيات « البيت أمام العالم » المزدهرات ، الى الوقت المستعبد الذي هو وقت التوافق مع الطبيعة في العزلة والموت ، وهذا ما توجزه إشارة موجزة على المخطوطة من الصفحة الأخيرة : « الوقت » يقوم أولاً بكثير من الأشياء ثم يتغلى عن كل شيء . لا يقوم بشيء بشكل صارم . ويتبع سير الزمن وخاصة الفصول (اليوميات ١) إن الوقت الذي أصبح تحت شعار السعادة ، موضوعاً رئيسياً ، يمنح الرواية هيكلها وإيقاعها . وتناوب الحاضر - الماضي ، في التخطيطات الأولى ، لم يكن مستغرباً . والآن ، من الوقت المسحوق في الجزء الاول الى الصيرورة الترجيعية في الجزء الثالث ، ينبغي على تطوّر الرواية ان يمر ويلتقي بالتعريفات الواهنة ذات التبررات الغنائية .

وهكذا نصل الى آخر تحول للرواية ، يقلّصها إلى قسمين . وهذا التقلّص يُفسر بسببين :

أولا ارتباطات كامو إزاء موضوع الحوادث المشقية والعاطفية . فكان عليه ان يضغطها . وفي المشروع الآنف الذكر ، كان القسم الثاني ، بعد « كسب

الوقت « يعلن « لقاء لوسيان » ثم « رحيل كاترين » ولم يستطع ، أو يريد ، من هذه الزوايا ، ان ينظم ما يكفيه من المواد ثم أصبحت حادثة زغرو أقل تماسكاً من ان تشكل نواة نظام . والهرب الى اوروبا الوسطى ، الذي كان في الأساس مرتبطاً بالغيرة الجنسية ، 'ضم إليها .

ولكن كما هو شديد الحرص على اقسامه الثلاثة : ومن هنا ، هذا التصميم أيضا . الأخير قبل « الضغط النهائي » .

#### القسم الأول :

- ١ - الحلي الفقير ..
- ٢ - باتريس مرسو .
- ٣ - باتريس ومارت .
- ٤ - محذوف يكاد لا يقرأ : ب. وأصدقائه (٢)
- ٥ - باتريس وزغرو .

#### القسم الثاني :

- ١ - قتل زغرو .
- ٢ - هرب في القلق .
- ٣ - رجوع إلى السعادة .

#### القسم الثالث :

- ١ - النساء والشمس .
- ٢ - السعادة الخفية الحادة في تيبازا
- ٣ - الموت السعيد .

العنوان النهائي وجد ، ولكن مطبقاً على الفصل الأخير . وحادثة زغرو ليست بعد في مكانها الصحيح . ويبقى نقل القتل ، في الأخير ، باديء الأمر ، ثم في مطلع القسم الأول . وإذ ذاك أصبح القسم الثاني ، المقصور على الرحلة والعودة ، هزلاً أكثر مما ينبغي . فدمج مع القسم الأخير ، وأقرّ عنوان مشترك « الموت الواعي » الاندماج ، مستدعياً عنواناً موازياً « الموت الطبيعي » . وبالمقابل ، فالفصول التي كانت تحمل عنواناً خاصاً فقدته . فالعنوان الذي دعي « البيت أمام العالم » . ثم « النساء والشمس » ، ثم النساء والعالم » يلي من من الآن فصاعداً من غير اخطار ، في الضوء المستهجن بصيغة الحاضر يلي حكاية العودة من براغ .

وهكذا أعيدت كتابة الرواية « باعادة كتابة رواية » ألزم كل مو نفسه في حزيران عام ١٩٣٨ - وقد انجزت ، أو على الأقل ، عدلت ، حتى أصبحت « الموت السعيد » .

لماذا لم تنشر؟ لن نقف هنا إلا على اسباب أدبية بحثة . فالسيد م . كاسكس ، في دراسته عن « الغريب » ، يفترض ان هذه الرواية ، في المشروع المتخيل لكامو ، قد حلت محل « الموت السعيد » ويرى في شهر آب ١٩٣٧ ، اللحظة الحرجة التي انسل فيها خفية موضوع « الغريب » ، فيما كانت تتكوّن ، وهو يورد هذا النص :

« انسان بحث عن الحياة في المكان الذي توضع فيه عادة ( الزواج ، المركز ، الخ .. ) يلاحظ دفعة واحدة ، وهو يقرأ فهرست الدرجة<sup>(١)</sup> ، كم كان غريباً عن حياته ( الحياة كما هي مقبرة في فهرست الدرجة ) يعطي الصيغة الأولى للموضوع بالرغم من أنه يتعلق بالموت السعيد .

---

(١) الدرجة هي الكلمة التي وضعها قاموس « المنهل » مقابل كلمة « المودة » Mode الاجنبية .

هذا الافتراض مقبول . ويمكن تقويته بملاحظة على القيمة الروائية للموت السعيد .

يبدو ان كامو ربما احس ، كلما كان يتقدم في تأليفها ، بالعيب المبطل لروايته الأولى وامكانية رواية اخرى .

انه عمل سيء التأليف ومكتوب بشكل مدهش في آن واحد ، كما يلاحظ ، روجيه كييو . وليس هناك افضل من هذا الكلام . ان صفات الكاتب الانيق العبارة تنفجر هنا ، ولكن ليس صفات الروائي . وكامو يحاول عبثاً ان ينظم فيها ويوحد عناصره المشتتة ، فاية علاقة توجد بين القتل المتخيل لزغرو وحكاية رحلة براغ الواقعية ؟ بين تصوير كردونا البائس وتذكر « البيت أمام العالم » ؟ ان التشتت في النغمات يجعل تشتت الحوادث اخطر فلا نستطيع ان نجد له عذراً استناداً الى حسن مدرّوس للمفارقة : فاللؤثر ، والبشاشة ، والابتذال ، والجفاف التصويري ، والحرارة الحسية والغنائية الشمسية تتعاقب من غير ان تكون متطابقة . والحوادث اكثر عدداً مما ينبغي وحياناً تستعمل بتكرار نافل ، فبعد موت أم مرسو ، مثلاً ، فرض علينا موت أم كردونا . والأدوار النسائية خاصة ، وزعت توزيعاً سيئاً . ففي « ثلاثية » الحمقوات « تبرز كاترين التي في الأساس - كما تظهر ذلك التصاميم الأولى ، كانت على علاقة مع مرسو . ولكن لوسيان كانت تستطيع ان تتصف بالميزة ذاتها . والتصاميم تنبيء بعلاقة فائرة مع هذه وطوراً مع تلك . ونقرأ فيها كذلك اسم امرأة تدعى لوسيل . ومارت ، كما نرى من ذلك بمقتضى احد التصحيحات ، تحمل محلها وتضطلع بقسم من دوري لوسيان وكاترين ، وتكون علاقة الزمن الضائع ، وكاترين علاقة الزمن المسترد . بالطبع ، ليس كامو بوضع مريح مع نسائه . إنهن يؤخرن ( تطور ) الرواية . إنهن يقدمن تجسيدا أدبيا للمثل : من يطمع بالكثير يفوته اليسير .

ونحس ، في النص النهائي ، جهده ليثبت اختصاصات كل منهن وليحتفظ

بأقارهن أو ليدبر دخولهن الى المسرح . والنتيجة عاطلة رديئة : أكان يوسعه ان ينتج اثرأ أفضل ، لو بذل مزيداً من العمل ؟

ان «الموت السعيد» ، بصفتها رواية ، مدانة في أساسها . فصفا الرواية ، كما نقرأ من كتاب حديث عن النوع الروائي<sup>(١)</sup> «تتعلق بالتوتر الذي تتحديه الملاحظة الدقيقة وتصحيح او تعميق الواقعي بالمتخيل» ولا تشذ عن هذه القاعده ايسة رواية ، بينما في «الموت السعيد» ، تظل عناصر الملاحظة ، اي مقاطع السيرة الذاتية ، تظل متفككة . فذكريات الحى الفقير ، والمصح ، والبيت امام العالم ، والرحلة الى أوروبا الوسطى ، والوجوه النسائية ، ليست بالمعنى الكياوي معالجة لتندرج في « كل ، في عالم مغلق موحد » شبيه بعالم بروسن الذي يتخذ كتاب كامو « الانسان المتمرد » نموذجاً ، وتلك العناصر لا تشكل كلاً الا حين يستعيد لها الخيال الخلاق . بيد ان الخيال الخلاق ، في « الموت السعيد » لا يعمل إلا على مستوى الاسلوب . واختراع الحوادث والاشخاص فقير جدا : فقتل زغرو ، المستوحى من الوضع البشري او الجريمة «والعقاب» وشخصه نفسه ، لا يفضيان الى الحقيقة الروائية . وفي هذه الرواية المستحيلة ، تبقى القيمة فقط للمشاهد الحية ، التي تخرج من ورید «الظهر والوجه» . ولا تتميز بالشكل عن «السخرية» او «الحزن العميق» ، او الذكريات الفنائية التي تنتمي الى ذكريات «اعراس» . ان احسن ما في الرواية ليس روائياً .

هل احسن كامو ذلك بمثل هذا الوضوح ؟ انه لا يعترف بذلك في اي مكان . ولكنه اكثر من محتمل ان شعوره الباطني كفنان على الأقل كان ينبه الى خطئه ويقوده ، بلا علمه ، في طريق اخرى . ولكي نستعير من جيد تشبيهاً موحياً يورده فنان طبيعي ، لطبيعي ، فان في نقطة «الموت السعيد» يرقانة «الغريب» . وكانت «الموت السعيد» تتابع تكتونها الخداع ، وكان مؤلفها يتقن في اعادة كتابتها واعادة احيائها في جميع اجزائها ، ولكن «الغريب» كمتطفلة موحى بها كانت تستمد افضل مكاسب هذا العمل الذي اعطى ، اخيراً ، بدلاً

---

(١) «الرواية حتى الثورة» تأليف هـ . كويله .

من روايه مزيفة ، قصة حقيقية .

واذن فانتنا سننهي هذه الدراسة باقامة توازن موجز بين « الموت السعيد » و« الغريب » . فقد دل روجيه كيبو ان « مرسو هو .. الأخ الأصغر لمرسو » . وأشار الى ان بعض الحوادث والأشخاص الثانويين هم مشتركون للنصين . ولكنه لاحظ الفروق واستطاع ان يكتب : « ان الحكيتين هما بلا ادنى علاقة . أو « الموت السعيد » ليست على الإطلاق رحم « الغريب » : انه كتاب آخر تماماً » .

ومع ذلك ، فبالرغم من فروق الحكيتين الختمية وطريقة التأليف والغاية ، نستطيع ان نرى ، في « الموت السعيد » ، تجسيدا مسبقا « للغريب » حتى ولو سجبنا من اللقطة معناها الحيوي ، رحما . ويكفي ، لنقنع بذلك ، ان نقارن بنية الكتابين : فالموت السعيد في آخر تحولها انتهت بقسمين . والمرور من التقسيم اثلاثي الى التقسيم الثنائي يعني بالنسبة لكاملو ، المدول عن التقطيع الكلاسيكي ، حيث ترعى عملية التأليف المتناقضات لصالح جدلية أكثر ذاتية توضع فيها المتناقضات ضمن « دائرة صغيرة Court circiut » . من وجهة النظر هذه ، لا تبدو « الغريب » الا نسخة مكزوزة « للموت السعيد » فهي مؤلفة من قسمين ايضا ، ونفس عدد الفصول تقريبا ( ٦ و٥ مقابل ٥ و٥ ) . وتصميم القسم الأول ، في كلا الكتابين ، هو نفسه بطريقة محسوسة . مشاهد من الحياة التافهة ، ثم الحديث مع الرجل مالك الكلب ( سلمانو او كردونا ) ثم قتل زغرو أو العربي . هذا القتل يدفع البطل من الزيف الى الحقيقة .

فان كلا من القسمين ليس بينهما في الظاهر شيء مشترك . صحيح ان الرحلة الى براغ أو البيت أمام العالم ، وهي عناصر لا تهضم في رواية رمزية ، قد اختفت من « الغريب » . ولكن لتأمل مرسو في عزلته في جبل شتوة ، ومرسو في سجنه في مدينة الجزائر ، فسوف نكتشف تشابها في إيقاع الزيارات التي تسليهما ، والفصول التي تثير مشاعرهما ، والوقت غير الوزون الذي يقودهما الى ساعتها الأخيرة . وإذا كان مضيرهما يبدو متباينا جدا لأن احدهما قد ارتكب جريمة كاملة استفاد منها

بينما الآخر ، وهو قاتل لا موهوب ، أصبح فريسة القضاة ، فيجب ان لا ننسى ان مشكلتها كليها هي مشكلة الموت السعيد-«الغريب» او «الرجل السعيد» تحمل في عنوان فرعي مخطوطة واحدة - وانها حلاها كلاهما بطريقة مظفرة ، وهما يمنحان نفسيهما للعالم ويتحرران من الناس .

ولا نفعل هنا إلا ان نقيم تشابهاً تستطيع دراسة جادة ان تعمقه ، شريطة ان تهتم بالمادة اقل من اهتمامها بطريقة هذين الكتابين. وتفق «الغريب» لن نكون بذلك الا اكثر وضوحا . ولكن هل هناك حاجة الى القول اخيرا ، ان «الموت السعيد» التي لم ينشرها ، هي وثيقة ، اكثر مما هي عمل ادبي ، وانه يكفيها مجدا ان تتمثل في هذه الوثيقة ، لكي تنضاف الى ملف عبقريته ادلة ايجابية ؟  
أنا نترك للقاريء متعة اكتشافها .

مؤسسة حمد الطبية والتصوير  
هاتف: ٢٧٧١٨٤ - ٢٧٦٥٢٨ - بـ كـ يـ جـ نـ ت







حين صدرت هذه الرواية في باريس احتلت بسرعة رأس قائمة أنجح الكتب . ولم يسبق لهذه الرواية أن نشرت من قبل ، وقد استخرجتها زوجة البير كامو من أوراقه . وبالرغم من أن هناك شبهاً في الأسماء بين بطلي « الغريب » و « الموت السعيد » فهذه الأخيرة تختلف عن تلك كل الاختلاف ، وموضوعها هو البحث العنيد عن السعادة ، ولو كان ثمن ذلك ارتكاب جريمة . وأحداث الرواية تتناول تجربة شاب يعاني مصاعب كثيرة على صعيد الفقر والمريض والحب والرحلات ، ويعيش حالات صراع نفسية ليس هناك أبصر من كامو في تصويرها .